قـراءة إســلامية

في قصص
محمد عبد الحليم عبد الله

د. محمد حسن عبد الله
أستاذ النقد الأدبي ــ جامعة الكويت

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١ ـــ المنهج .. والهدف

هذه الدراسة تحاول أن تكون : « قراءة إسلامية فى قصص محمد عبد الحليم عبد الله » . على طريق المحاولة بعض « الهوامش » الغامضة ، ينبغى أن نتخلص منها ببعض الإيضاح ، لنصل معا إلى فهم مشترك أو قريب من ذلك . مشروعية هذه « القراءة الإسلامية » مؤكدة ، حتى وإن كنا لا نملك الآن « نظرية نقدية إسلامية »(١) ، ليست بالضرورة قياسا على : قراءة ماركسية ـــ قراءة جمالية ـــ قراءة وجودية ... إلخ ، مما يعتمد على أصول نظرية محددة ، قاصرة على الفكر والفن ، أو أعطتهما اهتماما مباشرا فى إطار منطلقاتها الأساسية ورؤيتها الشاملة ، فالإسلام يتجاوز هذا كله بما أنه عقيدة وشريعة وسلوك وأخلاق : نظام حياة ، بل نظام وجود ، وهو تحوّل تاريخى وتجربة ممتدة لأربعة عشر قرنا ، وإلى ما شاء الله ، هذا العمق التاريخى يعنى أنها عاصرت ـــ على اتساع الزمان والمكان واختلاف الشعوب فى أدوار حضارتها ، واستهدافها للتقلبات والتغيرات

---

(١) ما نملكه إلى اليوم مبادئ عامة تستهدف الأخلاق والآداب الإسلامية على الأكثر ، ولا ترتقى إلى مستوى « النظرية » التى أهم خصائصها : وحدة المنطلق ، وثباته ، وتجدّده ، وشموله .

انظر مثلا : الدكتور نجيب الكيلانى : الإسلامية والمذاهب الأدبية

الدكتور عبد الرحمن الباشا : نحو مذهب إسلامى فى الأدب والنقد ـــ مجلة كلية اللغة العربية ـــ العدد ١١ ـــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

الاقتصادية والسياسية والفكرية — ما يغنى هذه التجربة الإسلامية ويعطيها الحق — أكثر من غيرها — أن تملك نظريتها الواضحة المميزة فى مجال الفنون عامة ، وفنون الأدب بصفة خاصة ، ليس قياسا على القراءات المذهبية إذًا ما نحاوله الآن ، بل سبرا لواقع معاش ؛ فالأديب الذى يكتب مستمدا تجاربه الذاتية والموضوعية من مجتمعه الإسلامى بكل ما فيه من ألوان الحياة والثقافة ، لا بد أن نجد أصداء هذه المعايشة وهذا الانفعال فى نتاجه الأدبى إيجابا أو سلبا ، على تفاوت فى درجات الإيجاب والسلب ، ومن حق الدراسة النقدية أن تستقصى أى جانب تراه من جوانب العمل الأدبى ، دون أن يعنى ذلك عزل هذا الجانب أو إهمال الجوانب الجمالية الأخرى ترتيبا على هذا التقصى الجزئى . فى محاولة سابقة بعنوان : « الإسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ »[1] نبهنا إلى أهمية المتابعة النقدية من رؤية إسلامية لأدبائنا على اختلاف فنونهم واتجاهاتهم ، بقصد تنوير أفكارهم ، وإشعارهم بأهمية ما يكتبون . فمن المبالغة أن نظن أن الكثرة من أدبائنا تتعمق فى دراسة القضايا التى تعرض لها ، كما أشرنا إلى خطورة الانصراف عن متابعة الكتابات المعاصرة ، ما لم تكن « إسلامية » بشكل مباشر ، وبالمعنى المتبادر لهذا الوصف ، لأننا بذلك نغريها بالاستمرار فيما بدأت فيه ، بل تزداد احتمالات الانزلاق ، مع استمرار الإهمال ، وهذا بدوره يغرى أصحاب النظريات الأخرى

---

(١) « الإسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ » نشر مرتين : مكتبة الأمل بالكويت سنة ١٩٧٢ ، ثم أضيف إليه ما يتعلق بالنتاج المتأخر لنجيب محفوظ ، ونشرته مكتبة مصر بالقاهرة سنة ١٩٧٨ .

بالتقدم لملء الفراغ ، وصب هذا الأدب فى قوالبهم الجاهزة ، ولا نستبعد أن يصمت الأديب راضيا أو يائسا من وجود تفسير آخر لما كتب ، وهنا تستقر المفاهيم الخاطئة وتصبح قضايا مسلمة (وهى ليست كذلك) يحتاج نقضها إلى جهد وإلحاح ، قد لا يصلان إلى نتيجة بالقدر المطلوب . ونضيف هنا أن النقد التطبيقى هو الخطوة الصحيحة المطلوبة الآن . ما جدوى أن نعكف على المفاهيم المجردة لنقيم نظرية نقدية إسلامية ؟ وما قيمة نظرية لا تجد إبداعا أدبيا حقيقيا يساندها لتثبت جدارتها فى تفجير الطاقات المبدعة لدى الأديب الفنان ؟ إن النظريات الأدبية ، والمذاهب الفنية لا تأتى كثمرة تلقائية لكدّ الفكر والتأمل ، سواء أكان ذلك بشكل فردى ، أو من خلال مؤتمر ؛ إنها خلاصة سلسلة من الحركات والتغيرات التى تترك أثرها فى الإبداع الفنى قبل كل شىء . فالأدب أولا ، والنقد ثانيا ، والنظرية أخيرا ، ولا يمكن تصور الأمور إلا فى هذا السياق ، فكتاب « فنّ الشعر » لأرسطو ، لاحق — وليس سابقا — لأهم ما أنتجت المواهب الإغريقية من مسرحيات ، والنظرية البلاغية العربية — إذا صح هذا التصور باعتبارها الأساس النظرى للنقد الأدبى عند العرب — لاحقة للدراسات التى اهتمت بإعجاز القرآن ومجاز القرآن ، « والمعادل الموضوعى » قال به إليوت بعد أن ذاع صيته وكتب أهم أشعاره ، و « تعادلية » توفيق الحكيم قد فسّر بها أدبه الذى امتد أكثر من ثلاثين عاما قبل ظهور هذا التفسير وليس بعده . وخلاصة ما نراه : أن التفكير العمد فى نظرية أو مذهب أدبى إسلامى لن يؤدى إلى ثمرة

عملية ، فى هذه المرحلة من تطورنا الاجتماعى ، وباستطاعة الدراسة التطبيقية العملية أن تقوم بالدور المطلوب ، وأن تكون « المقدمة المنطقية » للنظرية المطلوبة ، التى ستنبثق بطريقة تلقائية حين تنضج هذه الدراسات ، وتتجمع مقولاتها فى خطوط متوازية ، ومنطلقات أساسية متقاربة .

وهنا يصح أن نشير إلى مسألة تبدو شخصية أو فردية فى ظاهرها ، ولكنها تهدى إلينا فى النهاية ضوءا كاشفا على واحد من أهم الجوانب السلبية التى تتعثر فيها الرؤية الإسلامية للأدب . حين تحدثت إلى صديق أعتز بصداقته عن موضوع هذا البحث ، قال : « لماذا لم تختر كاتبا أوضح انتماء ؟ » لقد قال ذلك بإخلاص شديد « الانتماء » ... هو المشكلة وليس الميزة ، فما معنى أن نقوم بمثل هذه القراءة فى قصص باكثير أو السحار مثلا ، ممن يعتبرون أوضح انتماء فى رأى هذا الصديق ؟ وهل يحتاج جلاء الوجه الإسلامى فى أعمال هذين الكاتبين — أو من يشبههما — إلى جهد علمى من أى نوع ؟ وما جدوى أن نعيد قول ما قد قيل وإنْ يكن بطريقة أخرى ؟! ومن الذى سيقرأ مثل هذه الدراسة حين تنشر بطريقة أو بأخرى ؟ أستطيع أن أزعم أن قراءها سيكونون من « المنتمين » أيضا ، أولئك الذين قرأوا « الأصل » بدوافع انتمائهم ، ولنفس الدوافع يقرأون ما كتب عنهما من نقد ، ليستعيدوا « الأصل » مرة ثانية . وهذا يعنى — فى النهاية — أننا ندير « ساقية حجا » ، التى

تمتص الماء لتضخه ، ثم تمتص الماء نفسه لتعيد ضخه ، فلا هى تتوقف ولا الماء يزيد !![1]

وهنا سيظهر أن اختيارنا لأدب كاتب لا يصنف عادة بين الكتاب الإسلاميين، ينبع من رؤية نقدية علمية لمعنى « كاتب إسلامى » ، ويتضمن دعوة للاهتمام بالفنون الحديثة ، ومن أهمها القصة والمسرحية والتمثيلية التلفزيونية ، حتى نتمكن من الوصول إلى عقل الطبقات العريضة ، والجيل الجديد ، ومن منطلق علمى بحت : ليست هناك رابطة حتمية بين مفهوم الإسلامية ، والتراث .

وليس اتجاهنا إلى كاتب غير منتم — بالمعنى الضيق لمثل هذه التسمية — يهدف إلى الإبهار ، من حيث إن استخراج الشىء من غير معدنه يثير الغرابة !! فنحن نربأ بالدراسة العلمية أن تتعلق بهذه الألاعيب التى لا تثمر غير العجب لبراعة مجردة من الحكمة . لقد أردنا أن نؤكد حيال هذا الكاتب ، ما سبق أن كشفنا عنه فى دراستنا عن نجيب محفوظ ، أنه من المحال أن يعايش الأديب مجتمعا إسلاميا ويكتب منه وإليه ، وأن يتثقف بالثقافة الإسلامية ويتشكل بحضارة الإسلام ولغته وتراثه ، ثم يهدر هذا كله تحت أى دافع سياسى أو فكرى . لقد انحرف « نقاد » نجيب محفوظ بغايات أدبه ، حتى جعله بعضهم علمانيا ، وجعله بعض آخر ماركسيا صراحا ، فكانوا بذلك يعلنون عن مواقفهم الخاصة أكثر مما يفسرون أدبه

---

(١) وفى المقابل ، فإن مثل دراستنا هذه سينصرف عنها فريق من القراء قد حكم سلفا بأنه لا جدوى من البحث عن جوانب إسلامية لدى كاتب غير إسلامى ، ولا نتردد فى أن ندين هذا التصور ودلالته على الفقر الروحى والضحالة الفكرية ، كما أننا لا نعلق أى أمل على مثل هؤلاء فى تنمية الوعى الفنى بالمفاهيم الإسلامية فى الأدب .

من داخله ، وكما ينبغى للناقد المنهجى . والأمر بالنسبة لقصص محمد عبد الحليم عبد الله يكتنفه جانبان من اليسر والصعوبة ، ومصدر اليسر أنه لم يهتم كثيرا بالقضايا الاجتماعية ، مما يحتمل تفسيرات قد تبدو متباعدة أو متضاربة ، وأكثر روايات وقصص هذا الأديب تعبّر عن تجارب محدودة بأصحابها إلى حد ما ، وليست قابلة للتعميم الواسع ، كأن تعتبر علامة على مرحلة ، أو رمزا لطبقة ، أو إشارة إلى اتجاه . شخصيات هذا الأديب تعبّر عن نفسها غالبا ، ولا يعنى هذا — على أية حال — حرمانها من الدلالة الإنسانية العميقة ، ولكن هذه الدلالات الإنسانية لا تثير أصحاب النزعات مثلما تثيرهم الدلالات السياسية والاجتماعية والمذهبية ، مما يزخر به أدب نجيب محفوظ . وهناك مصدر يسر خادع ، وهو أن محمد عبد الحليم عبد الله ، لم يسفر عن اتجاه سياسى — فى حياته العامة — معارض للاتجاه الإسلامى ، بل ربما كان الأمر على عكس ذلك ، ترجحه ثقافته الإسلامية ، وارتباطه الوظيفى بالتراث[1] ، ومع هذا فإنه لم يهتم بشكل مباشر بما يمكن أن نطلق عليه : القضايا الإسلامية ، أو

---

(١) تخرج محمد عبد الحليم عبد الله فى مدرسة دار العلوم العليا (كلية دار العلوم فيما بعد) وهذا يعنى أنه قدم إليها من طريق مدارس المعلمين ، أو الأزهر ، وكلا الطريقين يعنى بالدراسات الإسلامية ويشترط فى الطالب أن يكون قد أتم حفظ القرآن قبل الالتحاق بمدرسة المعلمين ، أو المعاهد الدينية . كما قضى حياته الوظيفية بكاملها محررا فى المجمع اللغوى بالقاهرة ، وقد حدثنى أن يوسف السباعى عرض عليه أن ينقله إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، بقصد تحسين درجته الوظيفية ، ولكن عبد الحليم رفض الانتقال عن المجمع اللغوى ولعل هذا يفسر صدمته حين تخطوه فى الترقية بالاختيار ، وما أدى إليه ذلك من اكتئاب نفسى وعزلة فى آخر حياته .

الشخصيات الإسلامية ، فيما عدا تجربة واحدة ، تمثلت فى رواية تنتمى إلى مرحلة متأخرة من حياته ، هى رواية : « الباحث عن الحقيقة »، وهى عن الصحابى سلمان الفارسى ، وقد كتبها سنة ١٩٦٦ — ونجد أنفسنا مضطرين مرة أخرى — أو أخيرة — إلى تذكر نجيب محفوظ ، الذى لا يملك ثقافة عبد الحليم الإسلامية ، ولا امتداده التراثى ، ومع هذا فإن الشخصية الإسلامية قسيم مشارك باستمرار فى تنمية القضية فى الرواية وتشكيلها ، أى أنها ماثلة شكلا ومضمونا[1] . أما جانب الصعوبة

---

(١) فى بحث قيم للدكتور جابر عصفور : « قراءة فى نقاد نجيب محفوظ » ، حكم على محاولتنا بأنها نوع من « الاستنطاق » ، ورأى أن هذا المنحى فى النقد يدمر الاستقلال المتميز للعمل الأدبى ويعرضه للتشويه ، ويفقده أخص ما فيه وهو طبيعته الأدبية ، ويقول عن هذا النوع من الدراسات الاستنطاقية : « يضاف إلى ذلك أنها تساهم ، بطرائق متنوعة ، فى تأسيس مفهوم سالب للأدب — فى مجملة — باعتباره « محاكاة » وذلك بتعزيز الفرضية الضعنية التى تجعل الأدب يحاكى قيما أخلاقية مرة ، ومقولات أو أحداثا اجتماعية فى مرة أخرى ... » إلخ : مجلة « فصول » العدد ٣ — إبريل ١٩٨١ — القاهرة . وأغلب الظن أن الباحث الفاضل اكتفى من كتابنا بالصفحات الأولى التى اقتبس منها بعض العبارات الموجزة ، و لم يعط المحاولة بعض ما تستحق من عناية ، وفضلا عن أن الإشارة إلى المضمون ليست عملا منافيا لنقد الرواية ، أو مرفوضا فى مصطلحات نقدها ، فإننا لم نقصر جهدنا على استنطاق المضمون ، بل إن هذا ما نحذر منه دائما فى كل ما نكتب ، وفى تدريس النقد أيضا ، وكان واحدا من أسس ما راعيناه أن نراقب كيف يتكامل الشكل الفنى ويتوازن البناء حين تتكافأ قوى الرأى والرأى المعارض فى انقسامها على شخصيات العمل الفنى ، وكيف يتضعضع البناء ويفقد العمل تماسكه واتساقه الجمالى حين تهيف بوجهة نظر واحدة ، ويهبط بدرجة الصراع ، لأنه ينشب بين خصوم غير متكافئين .

فيتجلى فى إهمال النقد لهذا الكاتب مما ترك فى نفسه ألما دفينا يظهر فى حالات نادرة ، ولكنه ينبيء عن إحساس بالمرارة ، وقد تكون الكتابة عن أديب أهمله النقاد أقرب إلى الأصالة من حيث تعتقد على أعماله الفنية ذاتها ، أكثر مما تعنى برصد آراء الآخرين ، ولكن الجانب الإيجابى فى كتابات هؤلاء الآخرين ، سيكون فيما يمكن أن تثير هذه الكتابات من ردود فى شكل أفكار مجردة ، أو تطوير فى الأسلوب الفنى ، وتشكيل العمل الروائى ، مما يؤدى بالضرورة إلى إغناء تجربة الأديب المبدع وشحذ موهبته ، وهو ما لم يتيسر لهذا الكاتب[1] .

ونعود إلى قضية « الأدب الإسلامى » وعلاقتها بالانتماء ، لنرى وجها آخر من أوجه « مشكلة الانتماء » وليس ميزاته . وليس فى هذا إنكار لتلك الميزات ، ولكننا نشير إلى أثرها السلبى على المفهوم النظرى للأدب

---

(١) الكتابات الجادة عن أدب عبد الحليم عبد الله نادرة ، وأول ما يعتد به فى هذا المجال ما كتبه الدكتور عبد القادر القط عن رواية « بعد الغروب » فى كتابه : « فى الأدب المصرى المعاصر » ، مكتبة مصر ١٩٥٥ — فى فصل عن « السلبية فى القصة المصرية » ، وقد اعتبر عبد الحليم ما كتبه القط مغرضا ، ورد متهكما فى مقالتين بمجلة الرسالة الجديدة ، وبعد عشر سنوات كتب الأب الدومنيكى جوردان موتو دراسته بعنوان : « أديب الدلتا » ، وقد ترجمها سمير وهبى ، وأعيد نشرها فى صدر الرواية الذى صدر بعد وفاة عبد الحليم بعنوان قصة لم تتم . وبين هذين البحثين بعض الكتابات ، أكثرها فى شكل مقابلات أدبية وصحفية مع عبد الحليم نفسه ، أشار إليها الدكتور يوسف نوفل فى أطروحته للدكتوراه عن الفن القصصى عند عبد الحليم عبد الله وفى مقال نشرته مجلة عالم الفن الكويتية (عدد ٢٣١ بتاريخ ١٦ مايو ١٩٧٦) أما كتابات الدكتور نوفل، ويوسف الشارونى فى مقدمة «الدموع الخرساء»، ومقدمة: «قصة لم تتم»، فهى بعد وفاة الكاتب .

ونعود إلى قضية « الأدب الإسلامى » وعلاقتها بالانتماء ، لنرى وجها آخر من أوجه « مشكلة الانتماء » وليس ميزاته . وليس فى هذا إنكار لتلك الميزات ، ولكننا نشير إلى أثرها السلبى على المفهوم النظرى للأدب الإسلامى ، والمنهج النقدى حين يتصدى للدراسة والتحليل .

ماذا نريد بالأدب الإسلامى ؟

هل هو الأدب الذى يصدر فى شكل دعوة أو دعاية للقيم الإسلامية مما يطلق عليه أحيانا : أدب الدعوة الإسلامية ؟

هل هو الأدب الذى يصدر عن رؤية إسلامية للكون ، وللحياة وللناس والسلوك والعلاقات ، حتى لو لم يتضمن ما يمكن أن يعتبر إغراء بالتزام هذه الرؤية ؟

هل هو الأدب الذى يتجنب تصوير المواقف المثيرة للغرائز ، ويظهر الرذائل فى صورة ممجوجة ، ويجعل عاقبة أصحابها وخيمة ؟

هل هو الأدب الذى يكتبه المسلمون ، بصرف النظر عن مواقفهم الفكرية ، وعمق أو سطحية علاقتهم بالفكر الدينى ؟

هل هو الأدب الذى يكتب فى ظل الحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، بوحى من المجتمع الإسلامى الراهن ، وإليه ، سواء كان الكاتب مسلما أو غير مسلم ؟

هذه تساؤلات لم نطرحها لنشغل أنفسنا بالبحث عن جواب ، فليس هذا مكانه ، وكل ما أردنا أن نثيره فى فكر القارىء أن هذا المصطلح الواضح تماما للوهلة الأولى ، مصطلح : « الأدب الإسلامى » لن يكون على نفس

القدر من الوضوح إذا أمعنا فيه الفكر . وإذا كان « لا مشاحة فى الاصطلاح » ، فإن تحديد المصطلح خطوة أولية أساسية فى أى منهج علمى . ويمكن مراجعة التساؤلات التى طرحناها منذ قليل ، وتحويلها إلى إجابات بحذف أداة الاستفهام فقط ، وسنرى أن دائرة البحث تختلف كثيرا حسب كل مفهوم .

لن تستطيع هذه الصفحات القلائل أن تقول ، أو حتى تشير إلى كل ما ينبغى أن يشار إليه فى فن القصة عند أديبنا موضوع الدراسة ، ومن هنا كان الاكتفاء بالقراءة الإسلامية ، التى لن تكون استنطاقا للمضمون ، أو اعتصارا للمعنى أو الغاية فى العمل الفنى ، بل ستكون رصدا موضوعيا للألفاظ الإسلامية والآيات القرآنية المقتبسة بلفظها أو بمعناها ، والتراكيب المتأثرة بالأسلوب القرآنى ، والحديث الشريف . وهذا جانب أساسى فى تحليل الأسلوب قام عليه دعاة « البنيوية » ونسبوه إلى أنفسهم إذْ توسعوا فيه[1] ، وإن كنا سنقتصر — فى حدود الجانب الصياغى — على رصد التأثير الإسلامى (القرآن — الحديث — المصطلحات والألفاظ

---

(١) مع أن هناك إشارات صريحة محددة إلى هذا المنهج فى تحليل العمل الفنى نجدها عند عبد القاهر فى كتابه « أسرار البلاغة » ، ونجدها عند السكاكى فى « مفتاح العلوم » الذى يشير إلى بنية التركيب اللغوى مبتدئا بالصوت ، ثم الكلمة ، ثم التركيب أو شبه الجملة ، ثم الجملة ، ثم علاقات الجمل . جانب الأس الحقيقى يأتى من التطبيق ، الذى جاء آليا محكوما بالأمثلة الغريبة ، بعكس محاولة عبد القاهر التى جاءت أكثر نضجا بما لا يقاس ، ولكن وجه قصورها يأتى من أن عبد القاهر لم يستمر بتجربته ويتصاعد إلى تحليل عمل فنى كامل (أى قصيدة كاملة على سبيل المثال) ولهذا بقى أسير قوة المعنى ، مهملا مساحة المعنى وتكامله .

الدينية) . إننا نرى أن « البنيوية » ليست وحدها بقادرة على تحليل العمل القصصى أو المسرحى ، قدرتها على تحليل القصيدة ، فارتباط الفن القصصى والفن المسرحى بالواقع ، وضرورة تعبيره عنه ، تجعل الاكتفاء بالتحليل اللغوى مجرد مرحلة أو مستوى فى اكتشاف جماليات العمل الفنى ، لا تغنى عن تحليل ومناقشة القضايا التى قامت عليها هذه الأعمال ، والشخصيات ، والأحداث ، وكيف تنهض حبكتها من خلال البناء الجدلى لهذه الجوانب : أى الشيء ونقيضه . وسنحاول بعد هذا أن نختار بعض أعمال محددة : مقاطع من رواية ، أو قصة قصيرة ، نرى أنها أقرب إلى ما نريده من الأدب الإسلامى ، كما سنبدى اهتماما خاصا برواية « الباحث عن الحقيقة » باعتبارها ذات صلة مباشرة بالموضوع . ونحن فى محاولة الاقتراب من المنهج البنيوى لا نريد الإفادة من أحدث المناهج النقدية العالمية وحسب ، ولا نريد أن نعزل عواطفنا الشخصية فى التحمس للقضية أو نكبح جماحها ونعطى الموضوعية حقها حتى يكون كلامنا مقبولا عند من يخالفنا الرأى .. فقط ، وإنما نريد — بالإضافة إلى ما سبق — أن نؤكد ما هو معروف من أن الأدب ليس فكرة ، وليس رسالة تؤدى بالمعنى ، ولكنه بناء فنى ، يقوم فيه الأسلوب بدور أساسى ، وبهذا ينبغى أن يبقى الأدب الإسلامى « أدبا » قبل كل شيء ، أى عملا فنيا ينهض على أسسه الجمالية ، ثم إسلاميا بعد ذلك ، وإذا فقد الأدب شرط الجمالية لم يبق لهذه الإسلامية من مكان(١) وهذا يعنى فى النهاية أن الأدب

---

(١) لقد أطلعت على بعض الأبحاث التى قدمت باللغة العربية إلى « الندوة العالمية للأدب الإسلامى » — لكهنؤ الهند — ١٤٠١ هـ ١٩٨١م وقد دّل هذا البعض الذى =

الإسلامى ينبغى أن يكون أدبا عربيا ، تستمد قيمه الجمالية من عبقرية اللغة العربية وأسرار تراكيبها ، فإذا كتب بلغة غير لغتنا الشريفة فإننا لا نستطيع أن ننزع عنه صفة الإسلامية ، ولكنه مطالب بأن يكتشف جمالياته التعبيرية من خلال لغته الخاصة .

هكذا نبدأ هذه القراءة دون أن نضمر سلفا أن نجعل من محمد عبد الحليم عبد الله كاتبا إسلاميا ، أو غير ذلك ، أو عكس ذلك ، لأننا لا نملك منح الألقاب ، وكل ما نملكه هو أن نحدّد بعض الظواهر الأسلوبية والاتجاهات الفكرية ، من واقع التحليل الأسلوبى وتأمل العلاقة القائمة على ثنائية الذات والموضوع ، وبهذا تكتسب هذه القراءة أهميتها ، مهما كانت النتيجة التى ستنتهى إليها .

= أتيح لى على قصور فى فهم خاصية الأدب ، وأهمية الجوانب الجمالية فى الصيغة الفنية ، كما دل — عند غير العرب — على أن فكرتهم عن الأدب العربى قاصرة تماما ، ولا تملك المعرفة الكافية لتصور واقعه وأساليبه ، ومن ثم تحتكم إلى القدر المتحقق عندها ومن هنا كان تركيز غير العرب — غالبا — على الجوانب الأخلاقية فى الأدب ، وكأن مفهوم « الأدب الإسلامى » تحقق تلقائيا بمجرد الهتاف لهذه الأخلاق والدعوة إليها . وهذا أمر يقبله الوعاظ والدعاة ، ولا يقبله النقاد .

ألقى فى الندوة المذكورة ثمانية وأربعون بحثا باللغة العربية — انظر عناوينها وأسماء كتابها فى « النشرة الإخبارية » التى تصدر عن وحدة المعلومات التابعة للندوة العالمية للأنشطة العلمية الإسلامية — العدد الثانى : الناشر : دار البحوث العلمية — الكويت — ديسمبر ١٩٨١ .

الكاتب ، وما كتب

ولد محمد عبد الحليم عبد الله فى ٢٠ من مارس سنة ١٩١٣ — فى قرية كفر بولين — مركز كوم حمادة — محافظة البحيرة (مديرية البحيرة سابقا) وهذه المنطقة تقع فى شمال غربى الدلتا — على فرع النيل الغربى — فرع رشيد ، وتلامس الإسكندرية من جانب ، والصحراء الغربية من جانب آخر ، وتظهر هذه الملامح الإقليمية كثيرا فى أدبه ، فنرى شظف الحياة وصراع الفلاح مع الأرض الجدباء ، كما نرى النزوح إلى المدينة حلما لا يفارق مخيلة الريفى ، ولكنه حلم لا يلبث أن يتبدد ، حين يعانى لوعة الهجرة عن موطنه ، وخيبة أمله فى اقتناص الحياة الرخية ، إذ يقوم مجتمع المدينة على المنافسة والصراع والحيلة ، وهذا ما لم ينشأ عليه أبناء الريف .

حفظ عبد الحليم عبد الله شيئا من القرآن الكريم فى كُتّاب القرية ، وأتم تعليمه بين معهد الإسكندرية الدينى ، ومدرسة المعلمين الأولية بالقاهرة — هذا ما يقوله يوسف نوفل ، أما يوسف الشارونى فإنه لا يشير إلى الإسكندرية ، بل يحصر أماكن تعليمه بين دمنهور والقاهرة(١) ، وقد انتهى إلى مدرسة دار العلوم العليا (كلية دار العلوم الآن) وتخرج فيها سنة ١٩٣٧ — والتحق بالمجمع اللغوى ، وظل يتنقل بين وظائفه حتى كانت

---

(١) يوسف نوفل : قضايا الفن القصصى . ص٦٨ ط أولى ١٩٧٧ — دار النهضة العربية بالقاهرة — ومقدمة الشارونى لكتاب : قصة لم تتم : ص٧٧ — مكتبة مصر ١٩٧٧ .

وفاته فى ٣٠ من يونيه سنة ١٩٧٠ .

يشير يوسف نوفل إلى كثرة الجوائز التى نالتها روايات أديبنا فى مجال المسابقات ، حتى ليستحق — فى رأيه — أن يحمل لقب « أبى الجوائز »[1] وتدل هذه الجوائز ، كما تدل عضويته فى وفود الأدباء المستمرة على أن أدبه يمضى فى إطار مواصفات مقبولة من الجهات الرسمية ، التى تشرف على التربية والتعليم ، والتى توجّه الصحافة والإعلام ، فهناك طابع أخلاقى واضح ، ونزوع نحو المثالية فى أدب هذا الكاتب ، لم يتخلّ عنه إلى آخر أعماله ، وإن حاول أن يلوّن فى شخصياته وموضوعاته ، ولعل ذلك تم تحت إلحاح بعض ناقديه ، ومجاراة لما تغرى به الموضوعات التى تقبل عليها

---

(١) ولعل عبد الحليم هو الذى أطلق هذا اللقب على نفسه على سبيل الدعاية ، فلم يكن ينفرد بين أدباء جيله بالحصول على عدد من الجوائز ، ونشير هنا إلى باكثير ونجيب محفوظ ، فقد كانت المسابقات منتشرة فى تلك المرحلة التاريخية بقصد تشجيع الشباب واكتشاف المواهب ، ولعل عبد الحليم كان يقاوم بمثل هذا اللقب إحساسا شديدا بالإحباط الذى يعانيه داخليا ، فقد كانت قصصه ذات الطابع العاطفى منتشرة بين قطاعات من الشباب والشابات ، وبخاصة فى مستوى المرحلة الثانوية ، ولكنها لم تحظ بتقدير النقاد (دعنا من الجهات الرسمية التى تمنح الجوائز فى حدود اعتبارات معينة) وأذكر أنه حين احتفى النقاد والتلاميذ بنجيب محفوظ وأقاموا حفلا بمناسبة بلوغه الخمسين ، كان الحزن الدفين يكسو وجه عبد الحليم لما يلقى من انصراف وتجاهل رغم اجتهاده فى ميدان نشاطه ، وقال جملة لا أزال أذكرها :

« نعتب على بعض البلاد أنها تهتف للزعيم الأوحد ، ونحن لدينا كل شيء أوحد ! حتى الأدب ، عندنا فيه أديب أوحد ! » وقد انتظرنا حتى عبرت هذه الموجة ، ثم عرضنا عليه : الصديق الدكتور نجيب الكيلانى ، وأنا ، أن نقيم له حفلا على نفقتنا الخاصة بالطريقة التى يرتضيها ، بمناسبة مرور ربع قرن على حمله أمانة القلم . ولكنه اعتذر شاكرا .

السينما والتلفزيون فى ذلك الحين .

كتب عبد الحليم عبد الله ثلاث عشرة رواية ، فى ثلاثة وعشرين عاما :

١ ــ لقيطة	١٩٤٧ :
٢ ــ بعد الغروب	١٩٤٩ :
٣ ــ شجرة اللبلاب	١٩٤٩ :
٤ ــ الوشاح الأبيض	١٩٥١ :
٥ ــ شمس الخريف	١٩٥٢ :
٦ ــ غصن الزيتون	١٩٥٥ :
٧ ــ من أجل ولدى	١٩٥٧ :
٨ ــ سكون العاصفة	١٩٦٠ :
٩ ــ الجنة العذراء	١٩٦٣ :
١٠ ــ البيت الصامت	١٩٦٦ :
١١ ــ الباحث عن الحقيقة	١٩٦٦ :
١٢ ــ للزمن بقية	١٩٦٨ :
١٣ ــ قصة لم تتم	١٩٧٠ :

(وقد نشرها مبتورة كما تركها عند رحيله)

وصدرت له عشر مجموعات قصص قصيرة ، نشرت اثنتان منها بعد وفاته ، أولاهما كان أعدها للنشر واختار اسمها ، والأخرى قامت أسرته على جمعها مما كان قد نشر فى الصحف ولم تضمه أية مجموعة سابقة ، وقدم لها يوسف الشارونى . وبيان هذه المجموعات كالآتى :

١ — النافذة الغربية : ١٩٥٤
٢ — الماضى لا يعود : ١٩٥٦
٣ — ألوان من السعادة : ١٩٥٨
٤ — الضفيرة السوداء : ١٩٦٢
٥ — أشياء للذكرى : ١٩٦٤
٦ — خيوط النور : ١٩٦٥
٧ — حافة الجريمة : ١٩٦٧
٨ — أسطورة من كتاب الحب : ١٩٦٩
٩ — جولييت فوق سطح القمر : ١٩٧٠
١٠ — الدموع الخرساء : ١٩٧٧[١]

وما دمنا سنختار مادة هذه الدراسة من رواياته وقصصه القصيرة دون تفرقة ، فإنه ينبغى علينا أن نشير إلى بعض المحاذير : أولها : أن الرواية — أية رواية — مرهونة بتاريخ نشرها ، وبهذا يمكن أن نرتب الروايات ترتيبا تاريخيا ، ونتقصى الظاهرة الأسلوبية أو الفكرية ، ونحن مطمئنون إلى دقة

---

(١) جميع كتابات محمد عبد الحليم عبد الله صدرت عن دار نشر واحدة ، هى مكتبة مصر بالفجالة — القاهرة ، ولكنها — مع الأسف — تصدر دون إشارة لرقم الطبعة أو تاريخ صدورها . والطبعة الأولى — فقط — من مجموعة : « النافذة الغربية » صدرت عن دار الفكر ، ونشير كذلك إلى أن الأب جوردان موتو ذكر أن « لقيطة » صدرت ١٩٤٦ ، و « شجر اللبلاب » ١٩٥٠ — مخالفا نوفل . انظر قضايا الفن القصصى — ودراسة المستشرق موتو فى صدر « قصة لم تتم » .

معطيات هذا الرصد الذى يتصاعد أو يهبط أو يتذبذب ، حسب حالات الكاتب ونمو تجاربه الأسلوبية والموضوعية . وهنا يختلف الأمر مع مجموعات القصة القصيرة ، فليس تاريخ صدور المجموعة هو نفسه تاريخ تأليفها ، أو يقاربه بالضرورة ، ولنا فى المجموعة الأولى خير دليل ، وإعادة كل قصة قصيرة إلى تاريخ نشرها — بالاستعانة بالدوريات — يخرج عن استطاعتنا الآن ، وبهذا سنقبل ترتيب الروايات على إطلاقه ، وترتيب القصص القصيرة مع هذا التحفظ الذى أثبتناه ، حتى نتقبل النتائج مقرونة بهذا التحفظ نفسه .

وثانى هذه المحاذير يتصل بالشكل الفنى الذى يؤثره الكاتب ، وصلته بالموضوع والأسلوب ، فموضوع الرواية — أو القصة الطويلة — مختلف بطبيعته عن الموضوع الذى يصلح لقصة قصيرة ، ولا نريد أن نطرح قضية : مدى حرية الكاتب واختياره العامد للشكل الفنى الذى يؤثره قالبا للموضوع الذى انبثق فى فكره ، وأغلب الظن أن الموضوع هو الذى يتشكل تلقائيا مع تكامله منذ انطلاق شرارته الأولى ، وإلى أن يكتمل بالتنفيذ الفعلى ، أى : تسجيله كتابة . ونحن نرى أن « الرواية » أصدق تمثيلا لأسلوب الكاتب ، من حيث يسترسل فيها القلم أياما وليالى ، وربما شهورا ، وتحظى — فى امتدادها وتنوع شخصياتها ، وتعدد مواقفها — بقدر من التدفق لا تحظى به القصة القصيرة التى تحتاج إلى كبح جماح القلم وضبط النسب (بصرف النظر مؤقتا عن مدى التزام كاتبنا بذلك) ومراعاة كثير من الأصول التى تجعل « أصحاب الأساليب » غير مستريحين إلى هذا الفن ، ولا أقول غير ممتازين فيه . أما القصة القصيرة فإنها

أصدق تمثيلا للعقل والروح ، لأنها ومضة عقلية مباشرة ، وإشراقة روحية تتراءى للكاتب فى لحظة خاطفة متميزة ، والقصة القصيرة ، باعتبارها الشكل الأكثر تركيزا ، لا تسوق صاحبها إلى الافتعال أو الاستطراد ، فليست لها مطالب مرهقة فى الحجم أو عدد الشخصيات أو تركيب الحوادث ، وبهذا تكون أصدق تعبيرا عن رؤية الكاتب للحياة من الرواية ، رغم أن الرواية — فى قيامها على مراحل طويلة وشخصيات كثيرة ، وحوادث متصلة — قد تبدو للوهلة الأولى أصدق تعبيرا عن هذه الرؤية ، وحين نتأمل ذلك لن يخفى ما فيه من لبس ، لأن كاتب الرواية يفكر فى القرّاء ، ويفكر فى الحجم ، ويفكر فى إفادة وسائل التوصيل الأخرى (السينما . الإذاعة . التلفزيون) وربما فكر فى المكتبات العامة ، ووزارات التربية ... إلخ ، وهو ما لا يخطر ببال كاتب القصة القصيرة ، أو هو لا يفكر فيه بنفس القوة حين يأخذ فى تشكيل مادته كقصة قصيرة .

وثالث هذه المحاذير وآخرها أن اختلاف طبيعة الموضوع القابل للتشكيل الروائى — عن الموضوع الذى اختار قالب القصة القصيرة ، يسوق الكاتب إلى اختيار أنماط سلوكية — فى مجال الرواية — متنوعة ، أو متضادة . وليس تصوير هذه الشخصيات ، أو إعطاؤها الفرصة للدفاع عن نفسها دليلا فى ذاته على أنها تعبّر عن جزء من دخيلة الكاتب أو تدل على رضائه عنها ، إنّ الكاتب — أى كاتب — يضع فى اعتباره أهمية أن يراعى الأصول الفنية ، وأن يكون عمله متسقا مقنعا ، ولن يتم ذلك إلاّ إذا صوّر جميع الطبائع الإنسانية ، ونظر إلى الواقع نظرة موضوعية ، وتعمق فى الدوافع النفسية ومختلف الظروف الخارجية التى تجعل من الشخص هذا

الإنسان الطيب ، أو هذا الإنسان الشرير . وكاتب القصة لا يفكر فى « الإدانة » ويتجنب إصدار الأحكام ، ولكنه يفكر فى « المصير » ويرصد آراء الآخرين أو ردود أفعال الشخصية على هؤلاء الآخرين . وهذا هو الفرق بين « الوعظ » و « التصوير الفنى » ونحن لا نريد ، ولا نملك الحق فى أن نجعل من الروائى واعظا ، ولكننا نطالبه بصدق التصوير .

هذه النقطة الأخيرة نسوقها لنفسر بها سبب تجاهلنا لكثير مما يبدو مرفوضا على مستوى السلوك الأخلاقى الإسلامى ، من شخصيات عبد الحليم عبد الله[1] ، اكتفاء بإلقاء الضوء على « الدوافع » الذاتية والاجتماعية التى تشكل سلوك الشخصية ، وتحدد أهدافها فى الحياة ، من خلال التربية ، والمجتمع الذى يصنع القدوة . فحين نجد شخصيته ، هى بالمقياس الدينى والخلقى شخصية منحرفة — ثم لا تواجه فى النهاية مصيرا قاسيا يبدو عقوبة مستحقة ، علينا أن نفكر أولا فى معنى « الغفران » ، وثانيا فى « نسبية الانحراف » ، وثالثا : فى ضرورات البناء الفنى للرواية وأهمية التكامل من خلال التناقض أو الاختلاف بين الطبائع ، وحين نستحضر هذا كله سنكون قد نظرنا إلى « الانحراف » نظرة أكثر موضوعية ، بل نظرة أكثر إنسانية ، وأكثر صلة بروح الإسلام ، الذى لم

---

(١) حقا : ماذا نفيد من إحصائية تشير إلى عدد الذين يشربون أو يعشقون أو يرتشون أو يسرقون ... مثلا ؟ إن وراء كل واحد من هؤلاء أسبابا وراثية ونفسية واجتماعية تعمل عملها فى الفرد فيستهدف للانحراف وكأنه ضحية ، وإذًا فعلينا أن نستكشف الإطار الذى تتحرك فيه الشخصية المنحرفة ، والجذور التى تغذى انحرافها ، وسنجد أنها قد لا تستحق مصيرها ، فهى ضحية أكثر منها جانية .

يجرد المذنب من إنسانيته ، ولم يؤبد عقوبته ، ولم يحكم عليه بالنبذ من المجتمع ، إلاّ إلى حين ، ويمكن للفن القصصى ، حين تصنعه عقلية فنية ذات أصالة ، تؤمن بأن الهدف الأخلاقى التربوى للفن ، والقيم الروحية والاجتماعية الإسلامية لا تتنافى والإتقان الفنى على حسب الأصول النقدية ، يمكن لهذا الفن القصصى أن يؤدى رسالته كاملة ، فى إشباع الميول الرفيعة ، والغرائز الطبيعية والحاسة الخلقية ، والتطلع السامى فى النفس الإنسانية نحو الكمال والجمال دون تناقض بين هذه الأهداف .

الآيات القرآنية فى الروايات

١ — لقيطة :

﴿ ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[1] .

استعانت ليلى بهذه الآية ، لتؤكد فكرة أن اتفاق المصير لا يعنى بالضرورة تخفيف الإحساس بالعناء ، فقد كانت « لقيطة » قسا المجتمع فى معاملتها ، وحمّلها ذنبا لم ترتكبه ، وحين تعرفت على بعض مآسى زميلاتها فى الملجأ ، خفف عنها بعض الشيء ، ولكن إحساسها بوطأة ما تعانى عاد ليلقى ثقله على نفسها . « قالت ليلى : إن ورود الأول مواطن الهلاك لا يشجع الثانى ، وربما أفزعه ، وماذا يعنينى إذا أنا مت أن أناسا قبلى قد ماتوا ، أو أنه لم يمت قبلى أناس »[1] وهنا يبدو طغيان الإحساس بالتجربة

(١) لقيطة : ص ٣٤ — الآية الكريمة رقم ٣٩ من سورة الزخرف .

الفردية والمصير الفردى ، انسياقا مع طبيعة الخطيئة التى أثمرت هذه الفتاة الضحية . والإشارة إلى الاشتراك فى العذاب أكثر دقة ومناسبة لشقاء التجربة أولا ، ولأن المعذب يشغله عذابه عن التفكير فى عذاب الآخرين ، وفى هذا دليل على هول هذا العذاب — بخلاف الاشتراك فى النعيم ، فإن رؤية السعداء تزيد النعيم رونقا ومتعة ، بل إن إحاطة السعيد بالسعداء من شرائط السعادة .

﴿ ما على المحسنين من سبيل﴾[1] .

أدمج هذا الجزء من الآية فى سياق تألم ليلى من قسوة الناس عليها حين يعرفون أنها لقيطة ، « فما عذرونى ولا غفروا لى ، مع أن الخطيئة سبقت الغفران » . وتعجز ليلى — بتجربتها المحدودة — عن تعليل ما تعانى دون أن تكون مذنبة ، حتى لتتمنى لو أنها كانت تعاقب على ذنب ارتكبته « إذًا ما كنت آسى ولا آسف ، لأن العافين متفضلون ، وما على المحسنين من سبيل ، ولكننى كسبابة النادم عضُّوا علىَّ حتى دميت وما جنيت »[2] .

﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذُكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما﴾[3] .

هذه الآية رددها قارئ المذياع فى بيت الشيخ ، الذى سماه « السيد الأمين » ، وكان رجلا فاضلا بذل عطفه وحمايته على ليلى حين عرف مأساتها ، وكان يعالج فى المستشفى . دعاها إلى منزله ، وهناك التقت

---

(١) جزء من الآية رقم ٩١ من سورة التوبة .

(٢) لقيطة : ص٨٧ .

(٣) جزء من الآية ٥٠ من سورة الشورى .

بزوجه ، وعرفت أنه عقيم . أى أنه بلا ولد ، فى حين أنها بلا أب . وتحيَّر فكرها الحزين فى اكتشاف وجه الحكمة الإلهيّة فى وجود آباء بلا أبناء ، وأبناء بلا آباء . فلجأ الكاتب إلى المذياع وأنطقه بهذه الآية[١] ، ليؤكد السلطة القدرية فى هذا الجانب من حياة الإنسان ، وخروجه عن الإرادة البشرية . كان باستطاعة الكاتب أن يذكر هذا المعنى سردا ، أو أن يجعله على لسان الشيخ — وهو رجل دين لا يستغرب منه أن تكون مثل هذه الآية على خاطره حين قابلت ليلى بين حاجته إلى الولد ، وحاجتها إلى الأب ، ولكن المؤلف حين جعل الآية تنطلق مصادفة من المذياع إنما يؤكد الأصل القدرى للرزق بالأبناء ، وليس هذا الأمر بالمصادفة ، لأن المصادفة إذا أدّت وظيفةً صارت كذلك بالنسبة إلى عجزنا عن التحكم فيها ، لكنها تخضع إلى قانون أعلى ، هو قانون الوجود .

﴿ والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾[٢] .

أدمج هذا الجزء من الآية فى عبارة قالتها إحدى المتآمرات مع رئيسة الممرضات ضد ليلى ، لِماَ رأين من إخلاصها فى عملها ، ومحبة المرضى وإعجاب الأطباء بها ، فقررن تدبير ما يسىء إليها عند مدير المستشفى . وهذه العبارة القرآنية قالها أحد القادة لملكة سبأ حين طلبت المشورة للرد على سليمان عليه السلام . والاستعانة بهذا التعبير القرآنى غاية فى البراعة ، فأصله يدل على منتهى الخضوع من المرؤوس للرئيس ، وبلغ من الخضوع

---

(١) لقيطة : ص٩٨ .

(٢) جزء من الآية رقم ٣٣ من سورة النمل .

أنه لم تذكر صفة القائل أو وظيفته فى الآية ، وكذلك نَكَّرَ المؤلفُ قائلةَ العبارة فى الرواية(١) ، وجاءت فى الآية استمرارا لإعلان القوة والبأس ، وجاءت فى الرواية فى موقف التآمر وإعلان الموافقة . « هو ما تقولين يا سيدتى الرئيسة » .

٢ — شمس الخريف

﴿ عمل غير صالح ﴾(٢) .

بهذا الجزء من الآية وصف « مختار » سلوك أمه وصديقتها زينب تجاهه ، إذ أن هذه الأم ، التى لم ينادها أبدا بهذه الصفة ، بل عبر عنها طوال الرواية بـ « أم مختار » ، قست عليه بعد وفاة والده ، ثم حرضتها صديقتها على الزواج من جديد(٣) ، مما دفع بالفتى اليافع إلى طريق المجهول . لقد أحسّ حقيقة بعدم الانتساب إلى هذه الأم التى لم تحمل من صفات الأمومة شيئا ، وهذه هى النسبة ذاتها ، وإن كان الأمر معكوسا ، فى علاقة نوح بابنه ، ففى الآية جاء الوصف للولد أو لسلوكه الجاحد .

﴿ وفديناه بذبح عظيم﴾(٤) .

هذه الآية عَزّى بها عم خليل نفسه ، وأخذ يرددها ، حين اضطر إلى إنقاذ بقرته الوحيدة بالذبح ، بعد أن دهمها مرض مفاجئ ، وكان « البسطامى الصغير » ابنه قد وقع ضحية وباء التيفود ، وسيق إلى

---

(١) لقيطة : ص١٢٣ .

(٢) جزء من الآية رقم ٤٦ من سورة هود ، وسياقها : ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ .

(٣) شمس الخريف : ص٨٥ .

(٤) الآية رقم ١٠٧ من سورة الصافات

معسكرات عزل المرضى ، وهى على قدر من الإهمال والقذارة لا يوصف ، ولكن الله نجّاه ، وفى أعقاب نجاة الغلام سقطت البقرة ضحية المرض ، وذبحت حين لا مناص من الذبح(١) . تكرر مشهد ذبح البقرة ولوعة الفلاح البائس لفقدها فى قصص عبد الحليم عبد الله ، ولكنه هنا أحاطه بجوّ دينى صوفى يرى الخير من وراء الشرّ ، أو ما يبدو شرا ، فعم خليل رجل متصوف ، ويبدو هذا فى سلوكه ، وفى أسماء أبنائه ، وفى مواجهته للحوادث ، واستشهاده بالآية استجلاب لموقف الفداء ، ورضاء بالقضاء ، وهنا لم تذهب تسمية الرجل بعم خليل عبثا ، فقطب الحدث التاريخى المعجز هو الخليل أبو الأنبياء .

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾(٢) .

صوّر مختار بهذه الآية لحظة احتشاده بالمخاوف حين واجهت زوجته خطر الموت حين جاءها المخاض ، وقد عبرت الآية عن الطبيعة النفسية التى تميز بها مختار ، فقد كان راكد الظاهر ، لكن باطنه يغلى ، ولهذا كان — كما يعبّر عن نفسه « قليل الابتهال »(٣) ، مؤمنا بأن الله يعلم السر والنجوى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وبهذا الظاهر الساكن ، والأعماق التى تؤمن بالرقابة الإلـٰهية وشمول العلم الإلـٰهى ، يقترب مختار من السلوك الصوفى .

---

(١) شمس الخريف : ص٨٩ .
(٢) الآية رقم ١٩ من سورة غافر .
(٣) شمس الخريف : ص٢٥٨ .

٣ ــ من أجل ولدى

﴿ عمل غير صالح ﴾ .

عاد الكاتب إلى استعمال هذا الجزء من الآية ، والطريف حقا أنه جاء فى وصف العلاقة المضطربة بين الآباء والأبناء ، وهو فى هذا ينسجم مع الأصل القرآنى ، لأن « فؤاد » أطلق هذا الوصف على سلوكه تجاه والدته ، التى نشّأته على أن تكون المتصرفة فى كل أموره ، غير أنه وقد صار شابا ، بدأ يتمرد ويخفى بعض ما يفعل . فهنا صراع بين تربيته وغرائزه(١) .

﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾(٢) .

عاتبت الأم ابنها « فؤاد » عتابا آسيا على تغيّره ، لم يكن لها سند مادى أو معنوى غيره ، لكنه أحسّ أن هذه الأم جارت على حقوقه لتؤمن زواج أختيه وحياتهما المنزلية ، وكان هذا يعنى أن يصير فؤاد ضحية لهن ، فبدأ يتمرد بإخفاء بعض مرتبه ، وعدم العودة إلى البيت فى مواعيد ثابتة ، فلما عاتبته أمه تمثل بهذا الجزء من الآية . يعبّر بذلك عن أنه لا دوام لشىء وأن التغير سمة الوجود ، أو أن أى تغيّر هو من مقدور الله وفعله(٣) .

﴿ يفعل الله ما يشاء ﴾(٤) .

يكاد يكون هذا التعبير قولا شائعا على ألسنة المسلمين إذا أرادوا التفويض ، أو حتى تأجيل إصدار الحكم على شىء من الأشياء ، وقد

---

(١) من أجل ولدى : ص١١٦ .
(٢) جزء من الآية رقم ٢٩ من سورة الرحمن .
(٣) من أجل ولدى : ص١٥٦ .
(٤) ختام الآية رقم ٢٧ من سورة إبراهيم .

استخدمه فؤاد لهذين المعنيين فى حواره مع صديقة أمه ، حين شكا إليها تشدد هذه الأم فى معاملته من أجل أختيه[١] أشارت السيدة من وجه خفى تشجعه على التمرد لتتمكن من تزويجه لابنتها ، وهذا يستدعى منا استحضار السياق القرآنى الذى ختم بهذه الجملة ، لقد كان عن الكلمة الطيبة المثمرة كل حين بإذن ربها ، والكلمة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار . إن تفويض الفعل إلى المشيئة الإلـٰهية يجعل النية والعمل حدود استطاعة الإنسان ، أما تحول العمل إلى فعل مؤثر فهذا مفوض إلى الله سبحانه . لقد كان مصير فؤاد خير مصداق لهذا ، فلم يستطع أن يحول القول والعمل ، إلى فعل مؤثر .

سكون العاصفة

﴿ وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾[٢] .

﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾[٣] .

﴿ والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ﴾[٤] .

ننبه أولا إلى وقوع اللحن والخلط فى الآية الأولى ، والآية الثالثة ، فالأولى قد خلطت بين ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ — من سورة الذاريات ، و ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم ﴾ — من سورة المعارج . وفى الآية الثالثة توضع الفاء موضع الواو الأولى : ﴿ الله ﴾ . وحين نحاول اكتشاف هذا الخطأ يمكن أن نعيده إلى أن كاتبنا

---

(١) من أجل ولدى : ص١٦٨ . (٢) الآيتان ٢٤ و ٢٥ من سورة المعارج.

(٣) جزء من الآية رقم ٩ من سورة النحل .

(٤) جزء من الآية رقم ٦٤ من سورة يوسف .

قد أنسى ما حفظ من القرآن ، ولم يشعر بأهمية العودة إلى المصحف لتوثيق ما بقى من محفوظ، وهو لم يورد هذه الآيات بالمعنى ، فقد وضعها فى سياق روايته بين أقواس[١] . ربما استطاع السياق نفسه أن يفسر الاختيار واللحن معا . فهذه الآيات الثلاث جاءت على لسان الشيخة نبوية ، العجوز الكفيفة البائسة ، وقد وقفت بين يدى وكيل إدارة المساعدات « الأستاذ عزت » الذى تسلم عمله حديثا ، واستولى عليه إحساس دينى عميق بأن يحوّل وظيفته إلى لمسة خير فى حياة مستحقى المساعدة : « لماذا لا يكون هذا عملا قد انتدبنى له الله ؟[٢] » ، وقد وجهت المرأة العجوز عبارات لوم قاسية إلى وكيل الإدارة لتباطئه فى معاونة المحتاجين من مال الله الذى تشرف عليه وزارة الشئون ، حتى لفت نظرها أحد السعاة بأن هذا الوكيل جديد ، ولا يحمل أخطاء سابقة ، فالآيات الثلاث وثائق دفاع عن حق المرأة فى المال الذى تجنيه الدولة ، وتعليل لشجاعتها فى الطلب وأمنها العقاب . وطبيعة الشخصية هنا تجعل من الممكن وقوعها فى اللحن ، فهى من قارئات « الموالد » ، يتخذن تلاوة القرآن سبيلا إلى الارتزاق ، وهذا الصنف فى هذا المستوى من الثقافة لا يحرص على التثبت ، ولو أن المؤلف أثار انتباه القارىء ، أو المرأة نفسها — بوسيلة ما — إلى ما وقعت فيه من خطأ ، لكان ذلك تأكيدا على واحد من أهم ملامح هذه الشخصية . سنكتشف قرب آخر الرواية أن هذه العجوز البائسة هى أم فتاة الليل « عواطف » ، وبذلك تتأكد مسئولية المجتمع حين يقصر فى بذل العون

---

(١) سكون العاصفة : ص١٠٤ . (٢) سكون العاصفة : ص٧٢ .

المادى — فى إيجاد أول مبررات الانحراف . لقد اهتم الكاتب أحيانا برصد مظاهر الانحراف بالدين ، أو تحريفه ، وإلى هذه المرأة الضحية يشير إلى خرافة حدثت ضحا يوم ، عن شيخ طار بنعشه حتى اختار لنفسه مكان الضريح ، ووجد حملة النعش مشقة فى متابعة طيرانه حتى تخلوا عن أحذيتهم ، فهم من الفلاحين الذين لم يعتادوا لبس الأحذية ، ولكى لا يتركنا الكاتب للانسياق فى هذا التيار ، يخبرنا أن الأحذية التى تخلى عنها أصحابها على الطريق قد وجدت من سرقها من شهور موكب الجنازة ذاتها[1] . وهناك لفتة أخرى متعددة الإيحاءات ، فقد ذهب الشاب المادى الأبيقورى[2] « شكرى » إلى بيت فتاة اللذة سالفة الذكر ، فخبأته فى غرفتها حتى تقوم بخدمة أمها العجوز ، كانت الفتاة شديدة الحدب على أمها ، حريصة على ألا تعرف هذه الأم من أسرار ابنتها ما ينغص حياتها ، جلس شكرى وحيدا صامتا فى الغرفة ينتظر ، وكانت المفاجأة أنه وجد « آية الكرسى » معلقة فى إطار على حائط الغرفة ، كانت مكتوبة بخط جميل ، راح يتأمل الخط فقط ، ثم — كما يقول المؤلف : حين ضاق بالانتظار « سلم أمره إلى الله ونظر إلى الحائط يقرأ الجزء المعلق من آية

---

(١) سكون العاصفة : ص١٨٣ .

(٢) الأبيقورى نسبة إلى الفيلسوف اليونانى أبيقور (٣٤٢ — ٢٧٠ ق . م) وأشهر ما يعرف به هو نظريته الخلقية فى « مذهب اللذة » ، وجوهر نظريته : أن اللذة وحدها هى الخير ، ومن ثم ينبغى السعى إليها وتجنب الألم . واللذة إما أن تكون جسمية تنبع من الصحة الكاملة ، أو عقلية تنبع من التحرر من الخوف والقلق . ومع هذا فقد غلب على تصور مذهبه أنه دعوة إلى اللذائذ المادية الحسية . راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة . ص١٤ وما بعدها .

الكرسي[1] . من ناحية الفتاة ، هل أراد أن يقول إن ظاهر « هذا الصنف من النساء » غير باطنه ، وأنه « ضحية » وليس « جرثومة » ؟ أو أراد أن يشير إلى كيفية تحول الدين عند بعض الناس إلى مظهر ، مجرد نقوش جميلة تعلق على الحوائط دون أن تعنى شيئا أكثر من ذلك ؟ أو أراد أن يشير إلى المفارقة المخيفة بين مهنة الأم التى ترتزق بتلاوة القرآن ، ومهنة البنت التى ترتزق بما يناقض ذلك تماما ؟ بعض هذا ممكن ، وجميعه ليس بعيد الاحتمال . ومن ناحية شكرى ـــ الشاب المادى القابع فى انتظار ما سعى إليه ـــ فإنه يجرى مع طبعه المتحجر فلا تحرك فيه قراءة الآية ساكنا ، لأنه لم يؤمن بغير قدرته وحواسه ، وهنا مفارقة أشد بين سلوك الابن وسلوك الأب ، توازى المفارقة بين سلوك البنت وسلوك الأم ، فشكرى هو ابن الأستاذ عزت الذى اعتبر وظيفته فى وزارة الشئون « انتدابا » من الله ، وحين مهدت أمامه إحدى المترددات على الإدارة لطلب المساعدة ـــ وكانت شابة جميلة ـــ سبل المودة ، « تذكر اعتبارات لا حصر لها ، أهمها أنه منحها من مال الله »[2] . سيقابل شكرى القرآن مرة أخرى ، أو أخيرة ، حين يساق بفعل حياته المادية المنحرفة إلى مصحّ صدرى ، فيجد هنالك بعض الشباب المرضى ، يتعزى ويتقوى مسلمهم بقراءة القرآن ، ومسيحيهم بقراءة الإنجيل . ووجّه بعضُهم الدعوة إلى شكرى أن يشاركهم فى قراءة ما يؤمن به ، لكنه وقف مبهوتا ، لم يكن لديه ما يؤمن به ، حتى الدعاء إلى الله خجل أن ينطق به من فم جاحد ، مع حاجته إليه وإيمانه به

---

(١) سكون العاصفة : ص٢٣٨ . (٢) سكون العاصفة : ص١٢٦ .

فى موقفه الضنك ، يقول فى إحدى نوبات أرقه وعذابه قبيل احتضاره : « أريد أن تعاوننى يا أبى ، ابتهل بالنيابة عنى لأننى لا أستطيع » ![١] .

٥ — الجنة العذراء .

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[٢] .

هذا الجزء من الآية كان مكتوبا على لافتة أنيقة معلقة فى بيت عم جابر — سائق القطار الذى يقيم فى الدور الأرضى ، ويحتمى سكان « العمارة » بشقته حين تدهمهم الغارات الجوية ويخشون البقاء فى الأدوار العليا . كان « رضا » ، مطرودا من أرضه مع أمه ، وكان يقيم فى غرفة على السطوح على أمل العودة يوما . وساقته الغارة الجوية إلى مسكن عم جابر . هناك شاهد ابنته ثريا — الفتاة الشابة الجميلة — وكانت قوية الروح ، فى تبديد مخاوف من يلجأ إليهم أثناء الغارة ، وترفقت بأم رضا الريفية المذعورة ، مما جعل رضا يتطلع إلى الآية فى إعجاب ، ويربط بين « النور » فيها « وثريا » الماثلة أمامه[٣] ، وكأنّ نور الله ينعكس فى بعض عباده ممن يجدون أنفسهم فى خدمة الآخرين . ستكون « فكرة » النور أكثر سيطرة على جو الرواية التى تقوم عقدتها أصلا على الصراع على الأرض بين حمودة ، وأخيه الصغير

---

(١) سكون العاصفة : ص٤٣٥ .

(٢) مطلع الآية رقم ٣٥ من سورة النور .

(٣) الجنة العذراء : ص١٢٤ — ويتوافق إحساس رضا تجاه هذه الأسرة الصغيرة مع ما توصفه هذه الآية من إيحاءات ، وكأنها تعيش بها وفى نطاقها . يقول المؤلف :« أحسّ رضا أن هذه الأسرة تعيش حياة متسمة بالبساطة والقوة والإيمان ، وأن الصفاء الذى يسيطر على بيتهم خير دواء للقلب الكسير » — الجنة العذراء : ص١٣٨ .

رضا ، وكان حمودة جبارا ، لم يتورع عن تلفيق تهمة الزنا لزوجة أبيه بغية إرهابها وحرمانها وولدها مما يستحقان (جريمة الزنا عولجت فى سورة النور بصفة خاصة ومباشرة) وبَدْءًا من ظهور هذه الآية سيظهر وجه آخر للصراع على الأرض ، هو صراع المصريين مع الإنجليز لإخراجهم من مصر . فى آخر الرواية سيخطف بعض الجنود الإنجليز « ثريا » ، ولا يتمكن أبوها من معرفة مصيرها ، كانت له مناوشات سابقة مع بعض الجنود ، لكنه بعد اختطاف ابنته انضم إلى عمليات المقاومة ، وإنْ تكن مقاومة فردية غير منسقة ، وكذلك « رضا » الذى شغلته قضية أرضه الخاصه وصراعه مع حمودة ، بدأ يتجه نحو الصراع الوطنى لحماية الأرض ، وقتل واحدا من جنود الاستعمار ، وكأنه ينتقم لثريا التى أحبها ، وكان على وشك إعلان خطبته لها . استشهدت ثريا فبقى النور .. ماثلا فى إشعاع النفس بالآمال الكبيرة .. ضاع « الجسد » وبقى « المعنى المجرد » الذى لا يحتويه بيت ، لأنه فى السماء والأرض .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[١] .

هذا الجزء من الآية كان مكتوبا على لافتة أخرى معلقة فى مكان آخر ، خلف الكرسى الذى يجلس عليه الأستاذ البتانونى المحامى ، فى إحدى مدن الريف ، وقد قصده رضا ليدافع عن حقه فى ميراث أبيه ، ولم يكن البتانونى يعمل فى حدود وظيفة المحامى المعروفة ، كان أشبه « بزعيم العصابة » يعتمد على القوة والإرهاب والتلفيق فى كسب القضايا ، فلجأ إليه رضا

(١) مطلع الآية رقم ٩٠ من سورة النور .

ليحصل على حقه ، لأنه حق بلا مستندات ، وإن كان يعتقد « أن الحق الشرعى ليس فى حاجة إلى وثيقة »[١] أى أن رضا اتخذ الباطل سبيلا إلى طلب الحق . وهنا ثلاث ملاحظات ، يمدنا المستشرق موتو بأولاها حين ينبه إلى أن تعليق الآية فى مكتب محام غير أمين يدل على رياء التقاليد الدينية حين تكتسى بأحاسيس سافلة ، فتدفع شخصا مثل البتانونى لطرد الشاب رضا ، بينما تستمطر شفتاه رحمة الله على أبيه[٢] . فكأن تعليق الآية والسلوك بنقيضها يشير إلى علاقة بعض الناس بالدين ، وأنه تحول إلى « مظهر » أو « شعار » ، لا يتجاوز ذلك إلى حياتهم وعقائدهم العملية . والثانية مستمدة من العادات والمشاهدات ، فالذى يُلاحظ أن قاعات المحاكم ومكاتب المحامين تتصدرها آية أخرى هى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[٣] لما فيها من نص على « الحكم » بين « الناس » بـ « العدل » ربما تسرع المؤلف فى اختيار الآية ، لم يرد منها غير كلمة « العدل » دون زيادة ، وربما دلّه حدْسه على أن هذه الآية إجمال عظيم لكل معطيات الموقف ، بل الرواية بكاملها . إن البتانونى رفض فى البداية أن يتولى الدفاع عن حق رضا ، فلما رأى حاجة الفتى القليل الخبرة إليه ، شرط عليه أن ينال قدرا لا يستهان به من الأرض موضع النزاع ، فلم

---

(١) الجنة العذراء : ص١٦٤ والاقتباس من ص : ١٤٧ .

(٢) انظر دراسته فى مقدمة « قصة لم تتم » ص٥٥ .

(٣) جزء من الآية رقم ٥٨ من سورة النساء ، وقد عرف الرسول عليه السلام الإحسان بقوله : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فالإحسان بذلك جوهر العدل ومحركه وفى حدود المعنى اللغوى : الإحسان : الإتقان ، وأداء الشىء على أحسن وجوهه ، فالعدل ينبغى أن يؤدى خالصا من شائبة تنقص جلاله وسموه فى ذاته .

يشترط أجرا ماليا ، بل حصة عينية ، بل راح يدبر فى الخفاء أن يستولى على الأرض كلها ، أيا كان الرابح من الأخوين المتنازعين ، هكذا غاب « الإحسان » عن « العدل » ، فلم يعد عدلا ، أما « الجنة العذراء » فسواء كانت « الأرض » موضع النزاع فقد غاب العدل عن قسمتها ، وغاب الإحسان عن معاملة الأخ لأخيه ، أو كانت « ثريا » فقد غاب العدل عن وطنها ، فلم يحسن مصيرها ، أو كانت الوطن كله الذى حكمته قوة ظالمة فلم تحسن رعايته وواجه أبناؤه المصائر القاسية . وهكذا كان « الإحسان » وليس العدل المجرد ، ركيزة الصراع فى هذه الرواية . أما الملاحظة الأخيرة ، فهى أن رضا — الذى قَبِلَ تحت ضغط الحاجة أن يتخذ الباطل — متمثلا فى البتانونى — سبيلا لنيل حقه ، لم ينل حقه عن هذا الطريق .

٦ — للزمن بقية .

﴿ غُلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون ﴾(١) .

ردد محمد الجندى هذه الآية ، وطلب من « صلاح » أن يكتبها على قبره بعد وفاته . كان محمد الجندى مجرد خادم يسقى القهوة فى منزل العمدة الإقطاعى الظالم « النجومى » ، وكان للنجومى ولدان : طه ، وقد ترك التعليم وأدار أرض أبيه وصار امتدادًا له فى معاملة الفلاحين بالعسف ، وصلاح ، ولم يتمكن من إتمام تعليمه لطبيعته الخيالية العاطفية ، وظل مخلصا للثقافة محبا للإنسان . كان صلاح تجسيدا لإيمان محمد الجندى —

(١) الآيتان : الثانية والثالثة من سورة الروم .

الخادم الذى رباه طفلا — بالله ، وبانتصار الخير فى النهاية ، ولهذا شجع « صلاح » على هجر البيت حتى لا يحاكى مظالم أهله . وقد بذل صلاح عمره وماله فى الدفاع عن الآخرين ، وعلى الرغم من أنه لم يوفق ، لهذا الطبع الخيالى ولأن حزب الفساد يحارب بلا قيم ، فإنه لم يستسلم لليأس ، « فلا يزال فى الزمن بقية »[1] ، كان ترديد هذه الآية أكثر من مرة يعنى تأكيد انتصار الخير ، واستحالة أبدية الظلم ، وأن الحق يدافع بذاته ، وليس بالسلاح ، كان إحساس محمد الجندى بالقهر شديدا : « كم آية من القرآن ستكتبها على قبرى يا سى سلاح .. لا تنظر هكذا فأنا والله أقول الحق . فقراء الموتى فى القرى يدفنون فى قبور بلا شواهد ، وليس على أبوابها آية واحدة .. (ويضحك الرجل) حرام .. آنسونا بعد موتنا بكلمة »[2] هكذا يشعر محمد الجندى بعدم انقطاع التواصل بين الأحياء والأموات ، ويشعر بالوحشة فى قبر لم يؤنسه القرآن ، ويطلب أن يكون أنسه فى انتصاف من الذين ظلموا فيه — وفى الآخرين — الإنسان . لنقرأ هذا الحوار بين محمد الجندى وصلاح :

— ... هل يرضيك أن أتوه حيا وميتا يا سى صلاح . آية واحدة ورحمة والدك !

قال صلاح مازحا :

---

(١) للزمن بقية : ص١٩٠ وقد ترددت هذه الآية مرتين : ص٩٩ ، ص١٨٧ ، وفى كليهما تعنى ما ترمز إليه من انتصار الخير ، وليس سبب النزول بذاته . وذكرها طه النجومى ص١٥٨ معبرا عن استهانته بما تعنيه عند من يرددها من اليائسين .

(٢) للزمن بقية : ص٤٠ .

— اخترها من الآن يا عم محمد .

تنفس الرجل طويلا وسعل وقال بصوت خشّنه البلغم آية حفظها من فقيه القرية :

﴿ غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ .

صفق صلاح بكفيه واستغرق فى الضحك ، وهمهم الرجل بضحكة وانية ، لكن بخفة ظل . وقال الشاب :

— وهل تكتب مثل هذه الآية على قبر ؟

ردّ الرجل بعناد :

— غريبة ؟ حتى هذا تتحكمون فيه ؟ أنا حر بعد موتى .

— لكن يا عم محمد . هل تفهم معناها ؟!

— كلام الله نفهمه بقلبنا .

— أنت عنيد هذه الليلة . هناك آيات معروفة لمثل هذه الحالات .

— سألت عنها الفقيه فأفهمنى معناها .. تعجبنى .

— هل أنت ذاهب للموت أو للحرب .. هذه آية للحرب .

— سنحارب بعد الموت (قالها بضحكة خفيفة) .

— كيف هذا ؟

— سيكون لنا قوة ليست لنا اليوم (صمت طويل جدا) هذه وصيتى[1] .

﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾[2] .

حين عاد صلاح إلى القرية ليطالب ببيع نصيبه فى أرض أبيه ، شب

---

(١) للزمن بقية : ص٩٨ ، ٩٩ . (٢) الآية رقم ٦ من سورة الكافرين .

جدل حاد بينه وبين أخيه ، وأحس طه — وهو الكبير وفيه ضراوة — أن الخوار سينال من هيبته ولن يتمكن من إرهاب أخيه كما كان يفعل فى زمن أبيهما وفى حماية سطوته ، فردد هذه الآية لا يعنى معناها ، وبخاصة أن مناسبة النزول — والسورة مكية — يقولها المستضعف صاحب الحق فى مرحلة من دعوته ، وإذا كان أطراف الموقف فى الرواية على عكس ذلك ، فإن الاستشهاد بالآية لا يدل على أى وعى بالمرمى ، وإنما هو استعمال شائع يردد دون ارتباط بالدلالة الخاصة ، أو المعنى المجرد . وقد عاد صلاح فردد هذه الآية ذاتها فى إطار معناها ، فلم يوافق أخاه على أن الفلاحين قد خلقوا للظلم ، وأنه إذا حدثهم عن العدل فإنهم سيكونون أول من يسخر منه . ولهذا يقول صلاح فى نفسه ما سمعه من صديقه البدوى من قبل : « لا قرابة إلاّ بقرابة الأفكار »[1] .

٧ — قصة لم تتم

﴿ علم بالقلم ﴾[2] .

هذا الجزء من الآية كتبه تلميذ تحت لوحة معروضة فى أحد المعارض المدرسية ، ومحتوى اللوحة : صورة كف تمسك قلما . موضوع القصة التى لم تتم يمس مجتمع الهزيمة ، والعوامل التى أدت إلى هزيمته . من هنا نجد « فهمى سكر » — وهو مدرس متمرد محب للحياة فى نفس الوقت يكشف وجها من أوجه الزيف ، فهو مدرس فى مدرسة للبنات ، وكانت

---

(١) للزمن بقية ص١٥٢ ، وذكرت الآية فى موضعين من الرواية : ص١٥١ ، ص١٥٩

(٢) جزء من الآية رقم ٤ من سورة العلق .

ناظرة المدرسة لا تتردد فى إشباع مدير المنطقة التعليمية بالتهكم والشتائم فى غيابه ، فلما أقامت المعرض السنوى ، ودعته لقص الشريط أعدت خطبة مفعمة بالمديح لهذا المدير نفسه ، وكانت تنطق كلماتها بطريقة محرفة ، مما جعل « التحريف » مضاعفا ، وإذا وقف المدير أمام اللوحة يتأملها تجسد التناقض بين ما علّم الله للإنسان ، وما يمسخة الإنسان بنفس الأداة من زور المكتوب والمقروء . وهنا لم يملك « فهمى سكر » أن ضحك ، وانقلب الشاى من يده ، واعتبر الحادث بابا لصدام صريح مع مصدر النفاق .. ناظرة المدرسة[1] .

---

(١) قصة لم تتم : ص١٨٣ .

الآيات القرآنية فى القصص القصيرة :

١ ـــ منْ مجموعة : « النافذة الغربية »

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾(١) .

جاء هذا الجزء من الآية فى هيئة حلم ، حلم به عم حسب الله ، الفلاح المطرود من أرضه ، وقد عاش فى المدينة منفيا عدة أعوام ، ثم حلم أنه يصلى ويقرأ هذه الآية . فى قصة « عائد إلى القرية » قضى الفلاح عمره لا يرى غير حدود المزرعة التى يعمل بها ، لكن ما عاناه من اضطهاد الإقطاعى جعله يوقن أن « أرض الله واسعة » جدا ، ومن هنا كان المنفى ، أو ما يقابل الهجرة ، وكان الحلم بشيرا بتغيّر الحال ، إذْ أصبح من الممكن أن يعود إلى قريته بعد أن زالت سطوة الإقطاعى .

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(٢) .

استعان الكاتب بالمذياع ليدفع إلى سياق القصة بهذه الآية التى تعتبر

---

(١) جزء من الآية رقم ٢٧ من سورة الفتح . وفى قصة : « عائد إلى القرية » من مجموعة النافذة الغربية : ص٩٢ .

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء ، وجاءت فى ختام قصة : « الليل والعبيد » من المجموعة السابقة : ص١٠٩ .

إجمالا لعقدتها ، وهى بالنسبة لتركيبها تعتبر « نقطة التنوير » التى تتجمع عندها جميع معطيات النسيج القصصى ، ويكتمل بها معنى الحدث : الفلاح البائس يأكل لقمته اليابسة تحت شجرة شحيحة الظل ، يمر به طبيب بيطرى كان فى مهمة ، فيقف تحت الشجرة يبادله الحديث ، يمر بهما سيدان من الأثرياء أصحاب الأراضى ، أحدهما يركب فرسه ويتبعه حارس وكلب ضخم والآخر يركب سيارته ، يكف الفلاح عن تناول طعامه محرجا ، ويقف ، ولكن الثريين يتجاهلانه كما يتجاهلان الآخر ، فلا يبادلانهما تحية أو أى كلمة ويستغرقان فى حديثهما الخاص ، وهنا تنطلق الآية من مذياع السيارة ، لتؤكد أن الوضع الذى لا يحترم كرامة الإنسان لا يمكن أن يدوم . يقول السطر الأخير فى القصة : « وسمعت الكهل العجوز يقول وهو لا يزال معتمدا على جذع الشجرة : صدق الله العظيم . وعيناه تلمعان باليقين والإيمان » .

٢ — من مجموعة « ألوان من السعادة »

﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾[1] .

موضوع قصة « الكتيبة الصغيرة » حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، ومكان القصة قرية للصيادين قرب بور سعيد ، أما الكتيبة الصغيرة فهى عدد من الأطفال يقلدون الكبار الذين شاهدوهم يهجرون زوارق الصيد ليشاركوا فى الدفاع عن وطنهم ، ولم ينس هؤلاء الأطفال أن يكتبوا اللافتات المشجعة مثل « الكبار » حين يخرجون لقتال الكفار ، فكانت هذه الآية

(١) جزء من الآية رقم ١٣ سورة الصف — وجاءت الآية فى سياق قصة : « الكتيبة الصغيرة » من مجموعة : « ألوان من السعادة » ص٦٥ .

هى ما تبادر إلى خواطرهم .

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾(١) .

هذه الآية عثر عليها أحد الجنود الإنجليز فى أحد بيوت بور سعيد إبان حرب السويس ، أعجبه شكل نقشها دون أن يعرف ما فيها ، ظنها أحدهم تعويذة فرعونية ، أو من كلام النبى . قصة « عزيزتى كاترين » فى شكل رسائل يبعث بها الجندى المحارب إلى خطيبته فى وطنه ، ويعجب كيف لم تكن الحرب مجرد « نزهة » كما قالوا له . ويقرر : « أن أكبر قوة على وجه الأرض لا تساندها الروح لا تكون إلا شيئا أعمى أصم غاشما مدمرا ، كالبركان ، لا يعمل لحساب أحد ، يدمر فحسب » . ويعلق على الآية ، بعد أن عرف مضمونها ، فى شكل سؤال وجواب :

— إنهم قدريون .

— إنهم ليسوا قدريين ، إنهم يجدون ما يؤمنون به ، وهذا هو الفرق بين الوجود والعدم .

﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾(٢) .

فى قصة « عزيز » يتساءل الكاتب : هل القضاء والقدر يتحكم فى الحيوان كما يتحكم فى الإنسان ؟ ويطرح تصوره للجواب من خلال رصده لحياة فرس مدلل عند أحد الأثرياء ، وكان مختصا به ، يحبه ويؤثره بالعناية ،

---

(١) صدر الآية رقم ٥١ من سورة التوبة — وجاءت فى قصة « عزيزتى كاترين » من المجموعة السابقة ص٩٤ .

(٢) جزء من الآية رقم ٥٢ من سورة النمل . وجاءت فى قصة « عزيز » ص١١٤ من المجموعة السابقة .

ثم مات الثرى عن غير وارث من ولده ، وتناهب الورثة التركة وأهملوا الفرس ، فتدهور حتى صرف سائسه ، ثم بيع ، وتدرج فى الأعمال حتى تحول إلى جرّ عربة خبز . لقد ابتذل « العزيز » القديم . والكاتب فى عرضه لقصة هذا الفرس أشار إلى أن القدر شامل فى تحكمه جميع المخلوقات ، فالناس المراقبون لمآل الأسرة يصفون ديار هذا الثرى بعد وفاته وتقاسم تركته بالآية السابقة ، وتتمتها : ﴿ بما ظلموا ﴾ ! وبهذا خضعت الديار أيضا لحكم القدر وجنت عاقبة الظلم !!

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾[1] .

فى قصة « أرضى وعرضى » التى تصور الكفاح الوطنى فى حرب بور سعيد يبحث راوى الحكاية عن أحدث تفسير عملى للآية ، فبرد أحد الفلاحين فى شبه ثقة : « وهل هذه محتاجة إلى تفسير » ؟ فحيث يتأصل الإيمان تنتصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله .

٣ — من مجموعة « الضفيرة السوداء » .

فى قصة « الليلة الأولى » إشارة إلى آية قرآنية لم يكشف عنها ، مكتوبة بخط كبير ، وضعتها الأم بإطارها وسط ملابس ابنها المسافر للعمل طبيبا فى الريف ، وحين وصل إلى مقر عمله علق صورة والديه التذكارية ، والآية القرآنية تجاه الشباك . تذكر الطبيب الآية أكثر من مرة ، واستجاب لطلب النجدة فى الليل لأنه تذكر أمه عن طريق الآية . وحين استدعى لمساعدة امرأة

---

(١) جزء من الآية رقم ٢٤٩ من سورة البقرة — وجاءت فى قصة : « أرضى وعرضى » ص١٩٩ من المجموعة السابقة .

تعسرت ولادتها : ابتهل إلى الله أن ينجيها من أجل الحفاظ على سمعته الطيبة كطبيب ، أما زوج المرأة فكان « كلما انفتح باب القاعة دخل إلىّ صوت الأب وهو يرتل القرآن بابتهال وترنيم »[1] . وقد تمكن من إنقاذ السيدة رغم خطورة حالتها ، بحيلة لطيفة مكنته من حملها إلى المستشفى فى أقرب مدينة ، ثم تأتى « لحظة التنوير » ، بعد أن مضى الحادث بسلام : « كانت أشجار المركز الاجتماعى فى الليلة الثانية تئز فى الحديقة والملعب ، وكنت نائما وحدى أنظر إلى الآية القرآنية المعلقة على الحائط ، وأسترجع حوادث الليلة الماضية . لكن لم يكن قلبى فى الليلة الثانية يحس بالخوف ، فلم تترك السعادة فيه موضعا يسكنه الخوف »[2] .

نلاحظ أن الآية تتمتع بحضور قوى ، وهى التى توجه سلوك هذا الطبيب — ابن المدينة الذى يقضى فى الريف أول ليلة ، وهى التى تربطه بأسرته ، وبأمه على الخصوص ، برغم أن المؤلف لم يذكر نص هذه الآية .

---

(١) الضفيرة السوداء : قصة : الليلة الأولى : ص١٤٦ .

(٢) الضفيرة السوداء : القصة السابقة : ص١٥٠ .

التعبيرات والألفاظ والمعانى القرآنية

فى الفقرتين السابقتين توقفنا عند الآيات القرآنية المحددة بألفاظها وتركيبها القرآنى ، وكان المؤلف يضعها بين قوسين تمييزا لها ، وحتى لا تختلط بأسلوبه ، ولكن تأثر الكاتب بالقرآن الكريم يتجاوز بكثير هذا النوع من الاقتباس الذى يبدو فيه جانب « العمد » ، وقد لا يساعد الأسلوب القصصى على مثل هذا المسلك بشكل موسع ، وحين ننتقل إلى محاولة رصد التعبيرات والألفاظ والمعانى القرآنية ، فإننا سنكتشف ما هو — بالنسبة للدراسة الأسلوبية — أهم من الاقتباس المحدد المباشر ، سنكتشف أن القرآن قد وجه الأسلوب وصار جزءا من النسيج اللغوى والفكرى الذى يعتمد عليه الكاتب فى نقل أفكاره ورسم صوره ، وسنكتفى — فى هذه الفقرة — بتسجيل أوجه التشابه دون تحليل ، اكتفاء بالنموذج الذى قدمناه فى السابق ، ولأن الاقتباس المحدد يعنى الاتجاه إلى التجريد والتكثيف ، وقد أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة ، فرأينا كيف تجمعت أهداف القصة ، وأسرار بنائها الفنى أحيانا ، فى آية واحدة اقتبسها الكاتب ، ووضعها على لسان إحدى الشخصيات أو ساقها سردا ، أو أنطق بها المذياع . لن يكون للعبارة القرآنية مدمجة فى سياق أسلوب الكاتب هذه القدرة المشعة المجمِّعة فى الوقت نفسه ، لكنها ستكون ذات دلالة أخرى لا تقل خطرا ، وهى : صلة المعجم اللغوى ، والخصائص الأسلوبية عند عبد الحليم عبد الله بالقرآن ، والأسلوب

القرآنى ، وهنا نؤثر أن نضع عبارة المؤلف ، وفى مقابلها الآية القرآنية التى أثرت فى تكوينها باللفظ أو بالمعنى ، وسنحاول أن تكون هذه الفقرة استقصاء شاملا ما أمكن ذلك :

فى « لقيطة » :

١ — شهدت فى هذه البقعة انجياب الغسق ٩/٠ .

﴿ إلى غسق الليل ﴾ — الآية ٧٨ — سورة الإسراء .

٢ — أبدا تكذبين ما أقول وتفندين ما أعتقد ١١/٠ .

﴿ لولا أن تفندون ﴾ — الآية ٩٤ — سورة يوسف . .

٣ — نصفه بأجر ونصفه بمثوبة ١١/٠

﴿ المثوبة من عند الله خير ﴾ الآية ١٠٣ — سورة البقرة .

٤ — ليجعل الله لى فى كل بلد نسبا وصهرا ١١/٠ .

﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ الآية ٥٤ — سورة الفرقان .

٥ — وقلب عجيب الخلقة وسع الناس جميعا ، وأخاف أن أقول . ووسع الأرض والسماء ١٢/٠ .

﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ الآية ٢٥٥ — سورة البقرة .

٦ — وستبقى إلى أن تطوى السماء وتسير الجبال /١٣ .

﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ﴾ الآية ١٠٤ — سورة الأنبياء .

﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ الآية ٤٧ — سورة الكهف .

﴿ وسيرت الجبال ﴾ الآية ٢٠ — سورة النبأ .

٧ — لم تجد أذنا واعية ١٧/٠ .

﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ الآية ١٢ — سورة الحاقة .

٨ — فى البحر اللجى ٢٣/٠ .

﴿ أو كظلمات فى بحر لجى ﴾ الآية ٤٠ — سورة النور .

٩ — أصبحت بعدها فى برزخ بين وجود ووجود ٣٣/٠ .

﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ الآية ٢٠ — سورة الرحمن .

١٠ —إن فى ميدان العمل مجالا ، وفى الأرض متقلبا للكريم وسعة ٣٤/٠

﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرة وسعة ﴾ الآية ١٠٠ — سورة النساء .

١١ —أيصلنى المال بحياة تقطعت بى فيها الأسباب ٣٥/٢ .

﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ الآية ١٦٦ — سورة البقرة .

١٢ —لن أفر منه وإن أنقض ظهرى ٣٥/٠ .

﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ آية ٣ — سورة الانشراح .

١٣ —لو أنها حدثت العجوز بقول غير مأفوك ٦٦/٠

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ﴾ الآية ١٥١ — سورة الصافات .

١٤ —إن سرها المطوى عن كثير سيضحى كتابا منشورا ٤٧/٠ .

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ الآية ١٣ — سورة الإسراء .

١٥ —بوأها مكانا رأته أرفع مما تستحق ٩٧/٠ .

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ الآية ٢٦ — سورة الحج .

١٦ — إنه عطف كبير من فتاة خلقها عظيم ١١٥/٠ .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ الآية ٤ — سورة القلم .

١٧ — فلما آويتك وأسبغت عليك نعمتى كفرت بى ١٢٥/٠ .

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ الآية ٢٠ — سورة لقمان .

﴿ فآواكم وأيدكم بنصره ﴾ الآية ٢٦ — سورة الأنفال .

١٨ — أنا فى الأعراف ، لست شقيا ولست سعيدا ١٥٨/٠

﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ الآية ٤٨ — سورة الأعراف .

١٩ — كأنك ستغيبين مع الشمس ولن تبعثى مع الفجر ١٦٨/٠

﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ الآية ٦٠ — سورة الأنعام .

٢٠ — وتحولا للسير والليل ساج ١٧٠/٠ .

﴿ والضحى * والليل إذا سجى ﴾ ١ ، ٢ — سورة الضحى .

٢١ — إن جونا يملؤه السحاب .

وماذا نعمل لو أنه أمطر ؟ أنستطيع أن نقول للأرض ابلعى ماءك أو للسماء أقلعى ؟ أو نتخذ من حبال المطر أسبابا نرقى بها إلى السماء ؟ ٢١٢/٠ .

﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ﴾ الآية ٤٤ — سورة هود .

﴿ أو ترقى فى السماء ﴾ الآية ٩٣ — سورة الإسراء .

﴿ فليرتقوا فى الأسباب ﴾ الآية ١٠ — سورة ص .

٢٢ — صبت ليلى على إصبعها قليلا من الغَوْل ٢١٧/٠ .
﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفــون ﴾ الآية ٤٧ — سورة الصافات .

فى « بعد الغروب » :

٢٣ — بزغت الشمس ٨/٠ .
﴿ فلما رأى الشمس بازغة ﴾ الآية ٧٨ — سورة الأنعام .
٢٤ — يردان على بشراى ٨/٠ .
﴿ قال يا بشراى ﴾ الآية ١٩ — سورة يوسف .
٢٥ — سفعة من الحزن ٩/٠ .
﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ الآية ١٥ — سورة العلق .
٢٦ — إنها لا تزال فى خزائن الغيب ٦٥/٠ .
﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ الآية ٥٠ — سورة الأنعام .
٢٧ — وقفت أنا وسامى نرى آية الموت وهى تمحو آية الحياة /٢٢٠
﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ الآية ١٢ — سورة الإسراء .
٢٨ — رأيت السعادة العظمى هى فى أن تجمع المصادفات بين روحين خلقتا من معدن واحد ، وقدر لهما يوم خلقهما أن تزاولا فى الحياة مهمة مشتركة ، كما يصنع الصانعون شقى المقص ١٨١/٠ .
﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ الآية ١٨٩ — سورة الأعراف .

فى « شجرة اللبلاب » :

٢٩ — لأجعلنهم أحاديث ٦/٠

﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ الآية ٤٤ — سورة المؤمنون .

٣٠ — لم نجد منه بعد وفاة أمنا رحابة صدر ولا جناح رحمة ١٠/٠

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ الآية ٢٤ — سورة الإسراء .

٣١ — ثم خيل إلىّ مع سكون الليل وصمت الجبل وصفاء الروح أن النغمات قد امتدت أسلاكا بين السماء والأرض ، وأننى بدأت أعرج عليها رويدا رويدا كما يعرج الملاح على حبال السفينة ٩٥/٠

﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ الآية ٤ — سورة المعارج .

﴿ وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ الآية ٢ — سورة سبأ .

٣٢ — ثم سجى الليل ١١٢/٠

﴿ والليل إذا سجى ﴾ الآية ٢ — سورة الضحى .

٣٣ — فلا أجيبها إلا بإنغاض رأسى وهز كتفى ١٦٤/٠ .

﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ الآية ٥١ — سورة الإسراء .

٣٤ — ثم قصصت عليه القصص ١٦٥/٠ .

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ الآية ٢٥ — سورة القصص .

﴿ فاقصص القصص ﴾ . « الآية ١٧٦ — سورة الأعراف .

في « **الوشاح الأبيض** » :

٣٥ — هي واثقة أن جمالها عصا سحرية تستطيع أن تلقف من تشاء من الرجال ، حتى ولو كانت بنت مخيمر أفندى ٠/٢٥ .

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ الآية ٤٥ — سورة الشعراء .

٣٦ — وكان من سلالة الأعراب ، ولعله احتفظ بميراثهم التالد من الكفر والنفاق .

﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ . الآية ٩٧ — سورة التوبة .

في « **شمس الخريف** » :

٣٧ — وأنت تعلم أن أحاديث الهوى تلقح القلوب بالحب ، وتثير في خلاياها استعدادها للتآلف بالفطرة التي فطرها عليها الله ٠/٣ .

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ﴾ الآية ٣٠ — سورة الروم .

٣٨ — الأرض لله يا بني ، خالصة له وحده ، فلنشغل بأنفسنا قبل كل شيء ٠/٥٨

﴿ إن الأرض لله ﴾ . الآية ١٢٨ — سورة الأعراف .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ الآية ٤٠ — سورة مريم .

﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ الآية ١٠٥ — سورة المائدة .

٣٩ — وقد أكل الموت هذا الفريق أكلا لما ٧٦/٠ .

﴿ وتأكلون التراث أكلا لما ﴾ الآية ١٩ — سورة الفجر .

٤٠ — وعسى أن تكون قد وضعت أوزارها مع ابتسام الربيع ٩٠/٠

﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ الآية ٢ — سورة الانشراح .

﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ الآية ٤ — سورة محمد .

٤١ — إلا اللمم ١١٤/٠ .

﴿ إلا اللمم ﴾ الآية ٣٢ — سورة النجم .

٤٢ — فلنسأل أهل الذكر /١٢٦ .

﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ الآية ٤٣ — سورة النحل .

٤٣ — وحين أصبت أمنا من خوف ، وشبعا من جوع ، ومأوى من ضلال ، فكرت هادئا ، وفهمت فى تبصر ١٥٨/٠ .

﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ الآية ٤ — سورة قريش .

﴿ ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى ﴾ ٦ ، ٧ — سورة الضحى .

٤٤ — استغل موقفه منى استغلالا جعلنى فى بعض الأحيان أذكر الذين يفسدون صدقاتهم بالمَن والأذى /١٦٦ .

عطاء خالصا لا يشوبه من ولا أذى /١٧٢ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ الآية ٢٦٤ — سورة البقرة .

٤٥ — وانخرطت فى العمل والقراءة والضرب على قدمى فى أرض الله /٢٣٩

﴿ وإذا ضربتم فى الأرض ﴾ الآية ١٠١ — سورة النساء .

﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾ الآية ٩٧ — سورة النساء .

٤٦ — إن الله يعلم السر والنجوى ٢٥٨/٠ .

﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ الآية ٧٨ — سورة التوبة .

فى « **غصن الزيتون** » :

٤٧ — ودخلت من الباب كالفلك المشحون ١٣٦/٠ .

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ الآية ٤١ — سورة يس .

فى « **من أجل ولدى** » :

٤٨ — ظلت تئن وتتوجع حتى مطلع الفجر ٦/٠ .

﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ الآية ٥ — سورة الفجر .

٤٩ — الذين لا تلد نساؤهم أطفالا قد يسرحوهن بالطلاق ٧/٠ .

﴿ فمتعوهن وسرحوهن ... ﴾ الآية ٤٩ — سورة الأحزاب .

﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ الآية ٢٢٩ سورة البقرة .

٥٠ — ونحن لا ندعو ولا نبتهل ولا ننذر النذور إلا فى الأزمات . نطلب المعونة ونعد بدفع الثمن . حتى إذا ما أخذنا السلعة نسينا « الكمبيالة » . لكن عندما تتجدد الحاجة يجد الطيبون والرقعاء

على السواء فى نفوسهم حرجا من طلب المعونة مرة أخرى . وما دام الذى نطلب منه واحدا لا ثانى له فإننا نتجه إليه حتى ولو كنا مدينين ٠/١٤ .

﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء .. ﴾ ١٨٩ ، ١٩٠ — سورة الأعراف .

﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ﴾ . الآية ٢٢ — سورة يونس .

٥١ — تذلل العصاة أعذب فى سمع الله من بكاء النساء ٠/١٦ .

﴿ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ الآية ٨٢ — سورة النمل .

٥٢ — الطيبات للطيبين .

سأبحث لك عن بنت الحلال .

آه .. وأين بنت الحلال ؟

محجوزة لابن الحلال ، وأنت ابن الحلال ٠/١٦٣ .

﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ الآية ٢٦ — سورة النور .

من « سكون العاصفة » :

٥٣ — سبحان من يرث الأرض ومن عليها ٠/٣٠٧ .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ الآية ٤٠ — سورة مريم .

٥٤ — ولما جن الليل ٠/٤٠٢ .

﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ الآية ٧٦ — سورة الأنعام .

٥٥ — ابتهل بالنيابة عنى ، لأننى لا أستطيع ٤٣٥/٠ .

﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ الآية ٤٢ سورة القلم .

﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ الآية ٤٣ — سورة القلم .

فى « الجنة العذراء » :

٥٦ — وكان بعض الأتقياء والتقيات يتساءلون : لماذا يمد الله للظالم فى أسباب النعمة ؟

فيرد عليهم بعض الأشقياء المحرومين بأن النعم قد تكون من عذاب الله ، ثم يضحكون من منطقهم هم أنفسهم داعين الله أن يعذبهم فى الدنيا باللحم والفطير والموز ٨٢/٠ .

﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ الآية ٨٨ — سورة الحجر .

﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات ﴾ الآية ٥٥ — ٥٦ سورة المؤمنون .

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ... ﴾ الآية ٣٢ — سورة الأنفال .

فى « البيت الصامت » :

٥٧ — جعل يحدثها عن نعمة الله عليه /٢٢٣ .
﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ الآية ١١ — سورة الضحى .

فى « للزمن بقية » :

٥٨ — تصور أننا هيجنا هذه الأبابيل بعصا ٥٦/٠ .
﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ﴾ الآية ٣ — سورة الفيل .

فى مجموعة « النافذة الغربية » :

٥٩ — وكان إذا ما جن الليل ٤٠/٠ .
٦٠ — وسجى الليل ٨١/٠ .
٦١ — كان عم حسب الله يعلم حق العلم أن أرض الله واسعة جدا ٨٦/٠ .
﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ الآية ٩٧ — سورة النساء .
٦٢ — يأكل التبن أكلا لما ١١٢/٠ .
٦٣ — حتى أتى عليها حين من الدهر ١٦٣/٠ .
﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ الآية الأولى — سورة الإنسان .

فى مجموعة : « الماضى لا يعود »

٦٤ — أحسست أن قلبى الضيق قد أخذ يتسع شيئا فشيئا ، وأن العفو سينبثق منه كما ينبثق الماء من الصخر ٥٣/٠ .

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ الآية ٧٤ — سورة البقرة .

٦٥ — ونام الضيف وهو يذكر الشخصيات التى يسخرها الحب بقوته لخدمة الغير ، كما يسخر الله الرياح فى تلقيح الأشجار ٨٦/٠ .

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ الآية ٢٢ — سورة الحجر .

فى مجموعة : « ألوان من السعادة »

٦٦ — كذاب من الذين يقولون مالا يفعلون ٢٢/ .

﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ الآية ٢ — سورة الصف .

٦٧ — آخر ما قاله وهو يتثاءب للنعاس إن موعدهم الصبح ، وإن الصبح جد قريب ٢٥/ .

﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ الآية ٨١ — سورة هود .

٦٨ — يبتهلون إلى الله لأنهم من القاعدين ٧٢/ .

﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ الآية ٩٥ — سورة النساء .

٦٩ — كان يتخيل من قبل أنواعا غريبة من الموت أدركت وحيد ، وهو فى ميدان الجهاد ، ولكنه اليوم لم يستطع أن يتخيله إلا حيا ١٤٤/ .

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ الآية ١٦٩ — سورة آل عمران .

٧٠ — ولعل توفيقى فى حياتى داخل ضمن الجزاء الصالح الذى كتبه الله لأبى ، لأننى أحمل اسمه ١٥٥/٠ .

﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ الآية ٨٢ — سورة الكهف .

فى مجموعة : « الضفيرة السوداء » :

٧١ — أطلقت زغرودة حين بشروا بغلام /٢٤ .

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ الآية ١٠ — سورة الصافات .

٧٢ — إن ليلة القدر كانت ليلة ميلاد الست بهية ٠ /٢٧ .

﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ الآية ٣ — سورة القدر .

٧٣ — كان كل شيء فى الدار صامتا ، فقد بشر الأب بمولودة بنتا ٠/٨٤ .

﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ﴾ الآية ٥٨ — سورة النحل .

٧٤ — وكانت الزوجة قد سبحت فى نوم عميق ، من أثر الجهد وسوء البشرى ٠/٨٥ .

﴿ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ﴾ الآية ٥٩ — سورة النحل .

فى مجموعة :« خيوط النور » :

٧٥ — مثل برزخ ما بين الجنة والنار /٦١ .

٧٦ — ولعل قسوة جده هى التى ذكرته بالحب ، كما تذكر الجنة إذا ذكرنا النار ٠/١٢٩ .

فى مجموعة : « حافة الجريمة » :

٧٧ — ليسقى جنة صغيرة /٨ .

﴿ جنة من نخيل وأعناب ﴾ الآية ٢٦٦ — سورة البقرة .

﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ الآية ٦٢ — سورة الرحمن .

٧٨ — قطار السكة الحديد ، ورفيق السفر ، وفراق الأم ... كل أولئك كان .../٢٠ .

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ الآية ٣٦ سورة الإسراء .

٧٩ — إن هذا الرجل حلاف ، وأنا أخاف منه /٢٠ .

﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ الآية ١٠ — سورة القلم .

٨٠ — نأخذ الحى من الميت ، والنور من الظلام /٦٢ .

﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ الآية ٩٥ — سورة الأنعام .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ الآية ٣٧ — سورة يس .

﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور ﴾ الآيتان ١٩ ، ٢٠ سورة فاطر .

٨١ — وارتفعت فى الفضاء فجأة عصا من الخيزران كانت ذات قوة كعصا موسى /١٨٤ .

﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ الآية ٦٣ سورة الشعراء .

فى مجموعة : « أسطورة من كتاب الحب » :

٨٢ — عندما يحس بالقسوة لسبب من الأسباب التى تعبىء النفس الإنسانية ... يتعهد نفسه وروحه بالعلاج . يبدأ فى عمل يشعره بضعف الإنسان ، كأن ينظر إلى بعوضة فى كتاب طبى ، ثم يتذكر معها قصة أحد فرسان التتار .../٤ .

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ﴾ الآية ٧٣ — سورة الحج .

٨٣ — وأخذت الحقول الهادئة تشعر برجفة مثل رجفة القيامة ١٨٠/٠ .

﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ الآية ١٤ — سورة المزمل .

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ الآية ٦ — سورة النازعات .

تعقيب

بعد هذا الرصد ، الذى نأمل أن يكون دقيقا أو أقرب إلى الدقة على المستويات الثلاثة : اقتباس الآية بنصها ، أو بمعناها ، أو التأثر بلفظها وتركيبها .. نرى وضوح التأثير القرآنى ، وبخاصة فى الرواية الأولى ثم الثانية ، وقد تترادف روايات يتراجع فيها التأثير القرآنى ، بل قد نجد — بالمقابل — تسلل اللهجة العامية والتعبيرات الشعبية الشائعة ، وعلى سبيل المثال : فى رواية « غصن الزيتون » التى خلت — أو كادت — من ملامح قرآنية محددة ، نجد عبارات مثل : لحمة — اتنيل — الله عليهم (بمعنى ما

أجملهم) — أقفلت الباب على الفاضى — وابور الجاز يئز — الحوش — هس — الماكياج — السكة الفاضية — بوفيه المدرسة — وفى القاهرة .. كان — حل يا أخى — وفيها فرج — معلهش . هذا السيل من الكلمات العامية لم يأخذ مكانه فى الحوار فحسب ، فنجد له ذريعة ما ، ولكنه اقتحم الحوار الداخلى والسرد ، والتحليل ، أى أنه أخذ مكانه فى أسلوب الكاتب وأصبح ملمحا واضحا منذ تلك الرواية ، وهو ما برئت منه المحاولات الأولى(١) .

على أننا حين نضع هذه القائمة التى رصدنا فيها التأثير القرآنى ورأينا مراحل الوضوح والتراجع ، بإزاء التطور الموضوعى للروايات ، سنجد أن اهتمام الكاتب بقضايا العقيدة يتزايد ولا يتراجع ، وكأن التأثير ينتقل من الجزئى إلى الكلى ، من الكلمة والجملة إلى الشخصية والقضية والهدف ، حتى نجد رواية مثل « سكون العاصفة » تقوم على المسئولية الأخلاقية للأب تجاه أبنائه من الجيل الجديد ، الذى ينقسم انقساما حادا بين العاطفية

---

(١) إذا كان عبد الحليم عبد الله قد كتب روايته الأولى : « لقيطة » — وفى اعتباره أن يتقدم بها إلى المجمع اللغوى الذى أعطاها جائزته ، ومن ثم كان اهتمامه بصياغتها وتنقية لغتها وما زخرت به من تضمينات قرآنية ، فإنه كان جديرا بالنقد أن يقوم هذه التجربة تقويما منصفا ، ولكنها أهملت ، فبدأ الكاتب يتراجع ، فلعله أرجع الإهمال إلى هذا الثوب غير المألوف فى لغة الرواية ، الذى ظهرت فيه ، ثم كان نقد الدكتور عبد القادر القط فى كتابه : فى الأدب المصرى المعاصر ، وفيه سخر صراحة من أسلوب المؤلف ووصفه بالتصنع والبعد عن لغة الحياة ، كما سخر من المثالية الزائفة فى سلوك الشخصيات وأخلاقها حين تعرض للرواية الثانية : بعد الغروب .. فهل كان هذا وراء تراجع الكاتب عن صياغة أسلوبه المسبوك ؟!

المسرفة ، والمادية الجافة ، وكان الشاب الملحد « شكرى » نموذجا قاسيا لأفكار هذا الصنف من الشباب ، وكان مصيره المأساوى « حكما أخلاقيا » من الكاتب على الذين يتنكرون لإنسانيتهم تحت مزاعم تحاول أن تكون إنسانية ثم كانت « الجنة العذراء » صراعا معلنا بين القوة الغاصبة المسلحة بالعنف ، والحق الشرعى الأعزل ، ولقد انتصر هذا الحق . وإذا كانت « الباحث عن الحقيقة » رواية إسلامية على الرغم من أنها لم تردد آية قرآنية واحدة ، لأنها عن رحلة صحابى جليل من الكفر إلى الإيمان ، فإن هذا لا يعنى أن ما بعدها من الروايات يعبر عن حالة انفصال عن هذا الجو الروحى الخالص الذى رسمته هذه الرواية ، فقد كان صلاح — الفتى الرومانسى من أبناء النجومى الظالم — نموذجا لصاحب الضمير اليقظ الذى يرى وجوده مرهونا بمقدار ما ينفع الناس ، ولقد اتسمت أحكامه الأخلاقية دائما بهذه الخاصية ، ولم ينكص عن هدفه ، فلا تزال — رغم كل شىء — « للزمن بقية » .

دراسات متنوعة يمكن أن تجرى على هذه المادة اللغوية التى ظهر فيها التأثير القرآنى المباشر ، فيمكن إجراء إحصاء حول السور التى اتجهت إليها اقتباسات الكاتب ، ويمكن — من وجهة نفسية — دراسة المنحى الذى يأخذه التعبير القرآنى حين ينتقل إلى أسلوب الكاتب ، فمثلا نجده ، يستخدم صورة « الفلك المشحون » ليس فى تجسيد مبنى ضخم ، أو سيارة مزدحمة أو شجرة مثقلة بالثمار .. مثلا ، بل يصف « حماته » حين دخلت بجسمها الفاره ، وكانت حاملا تقترب من مرحلة الوضع . لقد رآها سفينة قد شحنت ، فهنا إشارة إلى الذرية التى حملها نوح فى سفينته ،

والذرية التى تحملها هذه الحماة فى بطنها التى لم تتوقف رغم تقدمها فى السن .

ولكى نستكمل هذا الجانب المرتبط مباشرة بالنصوص الدينية ، ينبغى علينا أن نحاول تحديد آثار واضحة لبعض الأحاديث النبوية ، وإشارات لمصطلحات وقضايا إسلامية ، هى الامتداد الحى للتأثير القرآنى ، بل نظن أن التأثير يتداخل ويأتى من أكثر من وجهة ، فى العبارة أو الإشارة الواحدة .

الأحاديث النبوية فى قصص عبد الحليم عبد الله

سيختلف الأمر مع الأحاديث النبوية بعض الشىء ، سنجد الأمر الغالب هو اجتزاء عبارة موجزة ، أو تمثل معنى من معانيها وإعادة صياغته بأسلوب المؤلف ، لكن التركيب اللفظى أو المعنوى سيدل على الأصل الذى نبعت منه الصياغة أو الفكرة .

وينبغى هنا أن نشير إلى أمور تتعلق بتأثير الأحاديث النبوية ، أولها : أننا لم نطرح قضية البحث فى درجة وثوقية هذه الأحاديث ، سواء من ناحية السند أو ناحية المتن ، فهذا ما يخرج عن أهداف هذه الدراسة ، ولأن ما ينسب قوله إلى رسول الله — ﷺ — يترك أثره عند الناس ، ويتلقى بطريقة خاصة ، مهما كانت درجة النسبة أو صحتها ، إلا أن يكون ذلك هو موضوع البحث فى القصة ، فعدم تحرى المسلمين الدقة فيما يجرى على ألسنتهم مما يظنونه من أقوال الرسول ، وهو مجرد قول مشهور ، يظل

محسوبا على مصدره المظنون من وجهة الدراسات اللغوية ، حتى وإن قالت الدراسات الفقهية غير ذلك . الأمر الثانى : أننا اخترنا أقرب الصيغ المعروفة لحديث الرسول مع وجود — أو احتمال وجود — صيغ أخرى قريبة ، اكتفاء بالقصد ، وهو الإشارة إلى وجود تأثير للحديث النبوى فى أسلوب الكاتب . وثالثها : أن هذه الفقرة حاولت أن تكون حصرا شاملا لكل الأمثلة ، لكن : لا تثريب إذا ظهر غيرها .

لقيطة :

١ — إن عاطفة الحب غراء محجلة بين العواطف ١٥/٠ .

قال رسول الله ﷺ : (أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء ، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله) .

٢ — استوصيته بك خيرا ٣٧/٠ .

قال رسول الله ﷺ : (استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضلع أعوج ...) إلى آخر الحديث .

بعد الغروب :

٣ — وكان حمقى كحمق الذى زعم أنه يخرق مكانه فى السفينة فأغرق كل من فيها ٣٦/٠ .

عن النبى ﷺ ، قال : (مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ مَن فوقنا . فإن

تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) .

٤ — قلت فى نفسى متشائما : سنحكم بيد امرأة ٧٧/٠ .
لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى . قال : (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) .

٥ — أحببت الناس فيك كما يحب العابد ربه فى العباد ٩٥/٠ .
(الخلق عيال الله ، وأحبهم إلى الله مَن أحسن إلى عياله) .

٦ — أدركت سر امتزاج ... رأيت السعادة العظمى هى أن تجمع المصادفات بين روحين خلقتا من معدن واحد ، وقدر لهما يوم خلقهما أن تزاولا فى الحياة مهمة مشتركة ١٦٧/ ، ١٨١ .
(الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) .

٧ — ودييننا ليس فيه رهبانية ، ولكن الذى ينال منه الحب هذا المنال ينقلب دون أن يشعر إلى راهب ، ولكن فى غير دير ، يسعى بين الناس بعيدا عن الناس ، ويكره خلق الله ، ولكنه يستغفر لهم ١٩٦/٠ .

(لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات ، رهبانية ما ابتدعوها ما كتبناها عليهم) .

شجرة اللبلاب :

٨ ــ لهذا خلقه الله وقد يسره لما خلق له ٠/٧٧ .

(اعملوا فكل ميسر لما خلق الله ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة ، وأما مَن كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة) .

شمس الخريف :

٩ ــ إننى أحبه من أجل سواه ، وماذا فى هذا ؟ ليتنا إذن نحب عباد الله جميعا من أجل حبنا فى الله /٧٩ .

(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) .

١٠ ــ إنه كندم الصائم الذى يأكل ويشرب ناسيا حتى يميت الجوع فيذكر أنه فى رمضان ، فيشهق ويضحك ، ثم يتمضمض مستأنفا صومه مستشعرا ندما ، تخالطه فرحة ، لأن الله هو الذى أطعمه وسقاه وقد يتمنى بينه وبين نفسه أن تتكرر الحادثة ٠/٨٣ ، ٨٤

(من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه) .

١١ ــ فهل يؤاخذها الله على قسمها الباطل ، أم أنه يخفف الحساب عن لون من الناس يحب الله فى الناس ، ويفنى فيه بفنائه فى خلقه ؟ أظن ذلك ٠/٢٥١ .

(سبق هذا المعنى فى الفقرة رقم ٥) .

١٢ — خيل إلىّ أن جدار الإنسانية العظيم كان محتاجا إلى لبنة مهمة ، ظل مكانها مفتوحا على هيئة ثغرة ، حتى تنفس ولدى أنفاس الحياة ٢٦٠/٠ .

(مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه ترك فيه موضع لبنة ، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلاّ موضع تلك اللبنة ، فكنت أنا ، سددت موضع اللبنة ، ختم بى البنيان وختم بى الرسل) .

وفى رواية : (فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين) .

الوشاح الأبيض :

١٣ — هل فى آداب الناس أن يتكلم اثنان فيومئ كل منهما بما يريده وبينهما ثالث غريب ، يخمنّ ما يقولان وهو متألم ؟٩٩/ .

(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه) .

من أجل ولدى :

١٤ — إن الامتناع عن الزواج إساءة إلى البشرية لا يغفرها الله ١٥٨/٠ .

(عن أنس رضى الله عنه : أن نفرا من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر ، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ؟! ولكننى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

١٥ ــ والدنيا فى نظرنا لا تساوى جناح بعوضة ٠/٢٣٧ .
(لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء) .

١٦ ــ وكان الخجل يلون خدها ، فأكدت لها ما سبق أن أكده أبى لأمى حين نهته عن المعاصى من أن الله غفور رحيم ، وأنه لا ينبغى لنا أن نسلبه إحدى صفاته ٠/٢٤٦ .
عن ابن عمر ، رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم . أى رب ! حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه أهلك . قال : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ...) .
(لو لم تذنبوا فتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم) .
ومن حديث قدسى : (... ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة) .

سكون العاصفة :

١٧ ــ قولى لها : إن النظافة المبالغ فيها ليست من الإيمان ٠/٤٦ .
(إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه ، فسددوا وقاربوا) .

١٨ ــ عن أمه : كانت تستغفر الله فأشعر أنها تحاسب نفسها ٠/٦٥

ويسجل دعاءها المسجوع ، وقولها : ألم أكن ظالمة لفلانة حين عملت كذا .../٦٦ .

(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) .

إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، قال للنبى ﷺ : يا رسول الله ! علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : (قل : اللهم ! إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم) .

الجنة العذراء :

١٩ — تذكر بركات فعلته بخميس ، وقال فى نفسه : ربما لو لم أفعل هذا ما وقع ذلك من عزوز ، وليس معنى ذلك أنها دقة بدقة ٨٤/٠ .
(من زنى يزنى بأهله ، ولو بجدار بيته) .

٢٠ — كانت بهية تسأل الله سؤالا : لماذا أعطى هذه النعمة للحاج ماضى ؟ ولم تلبث أن اهتدت إلى الجواب : لعله يعذبه بها ٦٦/٠
قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته) .

٢١ — دافع الحلاق عن الحاج ماضى لوجه الله : فإن الظلم أحد الأبواب السبعة التى فتحها الله لجهنم ٨٠/٠ .
قال رسول الله ﷺ : (اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) .

وفى الحديث القدسى : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا) .

البيت الصامت :

٢٢ ــ جعل يحدثها عن نعمة الله وهو شارد ، كفاحه مثل كفاح الطير تبنى عشها والريح تهب ٢٢٣/٠ .

(لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتعود بطانا) .

الباحث عن الحقيقة :

٢٣ ــ وشعر أن المشقات أعظم الأبواب التى تؤدى إلى الله ٢٣/٠ .

قال النبى ﷺ : (يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى بشبر ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة) .

٢٤ ــ العمل والعبادة شيئان مباشران فى نظرى لا واسطة فيهما ٥٤/٠ ، ٥٥ .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : بينما أنا رديف النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرجل ، فقال : يا معاذ ! قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ ! قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ !

قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، قال : هل تدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل ! قلت : لبيك رسول الله وسعديك . قال : هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق العباد على الله أن لا يعذبهم) .

قصة لم تتم :

٢٥ — هل يتصور كل الناس أن فى داخل كل منا شخصا لا نحسّ بوجوده ، أما الهيكل البادى للناس فليس إلا غطاء لمن فى الداخل ١٧٠/٠ .

قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

المجموعات القصصية

مجموعة : النافذة الغربية :

٢٦ ــ إن توارث العيوب واستسلام الأجيال لكل ما تكره من أكبر البلايا التى تصاب بها الجماعات ، فلو أن الثور الأول رفض النير ما حمله الثانى من بعده ١١٣/٠

(من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

مجموعة : ألوان من السعادة :

٢٧ ــ إن الله الذى خلق الداء خلق له الدواء ١٢٠/٠ .

(إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ، ولا تداووا بحرام) .

(تداووا عباد الله ، فإن الذى خلق الداء خلق الدواء) .

٢٨ ــ هل تظن أنك ستلدغ من هذا الجحر مرة أخرى ؟١٣٥/ .

(لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) .

٢٩ ــ إن الجثة التى تموت شريفة لا يدركها التعفن ١٤٢/٠ .

ورد فى الآثار أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ولا الأولياء ولا الشهداء .

مجموعة : الضفيرة السوداء :

٣٠ ــ إنه الشيطان يا بنى ، لو قذفه أحدهما بحصاة ليلتئذ ما افترقا قط ٩/٠ .

من حديث سليمان بن صرد ، قال : كنت جالسا مع رسول الله ﷺ ورجلان يتسابان ، فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال ﷺ : (لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد) .

مجموعة : أسطورة من كتاب الحب :

٣١ ــ إن أحزان بعض الناس قد تكون سببا فى هدم أفراح ناس آخرين . هيا .. البسى ملابسك واذهبى إلى دار أبيك ، وعليك أن تبقى هناك عند والدك وشقيقك حتى تعود أختى زوجة أخيك إلى دار أبيك ٨٢/٠ ، ٨٣ .

(عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار ، والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ، وليس بينهما صداق) .

وفى رواية مسلم : (لا شغار فى الإسلام) .

(وهذه القصة ترصد واقعا قريبا من الشغار المنهى عليه ، وهو زواج « البدل » ويحدث للبنت أو للأخت ، وبصرف النظر عن مسألة الصداق ، فإن عملية المبادلة هذه تربط الزيجتين برباط واحد ، وأى تأثير على إحداهما ينعكس على الأخرى مباشرة . ولعل هذا الخطر المحتمل هو جوهر النهى فى الحديث الشريف) .

مجموعة : الدموع الخرساء :

٣٢ — كانت تجزم بأن « الشيطان ثالثهما » دائما ، ولا يمكن أن يقف بين الرجل والمرأة ملك طاهر يضع يدا على صدر كل منهما ١٠٦/٠ .

عن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان) .

إشارات وتضمينات إسلامية

إن استيعاب التجربة التاريخية الإسلامية يؤدى إلى أن تشع هذه التجربة فى فكر الكاتب وأسلوبه بمستويات مختلفة ، تعرفنا على بعضها ، ونستكمل الصورة بالتعرف على ظاهرة أخرى ، لن تكون أقل أهمية ، ليس من الناحية الأسلوبية فحسب ، بل من ناحية التداعى النفسى ، وحركة الخيال أيضا . وسنكتفى فى هذه الفقرة بالتمثيل دون الحصر . وسنتدرج مع الترتيب التاريخى للروايات ثم القصص القصيرة ، حسب ما درجنا عليه فى السابق .

كيف تظهر ليلى — اللقيطة — عجبها من « المجهول » الذى تواجهه ، وتراه نقيضا غير مقبول بقوانين الوجود نفسها ؟ إنها تحاكى أساليب المعلمين فى ربط الفعل بالفاعل : « إن الذى صنع هذا الباب النجار ، والذى بنى هذا البيت البناء ، والذى طرق حديد الشباك الحداد ، فكل شىء لابد له من صانع ، وكل موجود لابد له من موجد(١) » فهذا قانون

(١) لقيطة : ص٣٠ .

عقلى فطرى ينشأ تلقائيا فى عقل الإنسان ، وقد لجأ إليه الأعرابى بفطرته حين سئل عن الخالق ، فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ... إلخ . وقد رددت كتب العقيدة هذا الدليل نفسه فيما بعد .

وحين تتحدث أحلام إلى ليلى وتعرف لها الحب ، فإنها تستعمل عبارات قال بها المتصوفة الإسلاميون بعد ذلك ، وإن كانوا متأثرين بفلسفات قديمة[1] . وحين تلتقى ليلى بأمها المجهولة مصادفة فى آخر الرواية ، تظهر هذه الأم ندمها على قسوتها ، وترى أنها نالت حظها من الشقاء ، وتدعو الله أن « يطهرنى بالألم وينقينى بالعقاب »[2] ، وهذا المنحى الأخلاقى يسيطر على الرواية كلها ، فى أوصاف السيد الأمين ، وفى نظرة هذا الرجل الصالح إلى ليلى ، وفى تعاطف الفتى الذى أحبها ودوافع حبه لها ، ولكنها جنت أشواكا كثيرة ، لأن الحياة ليست خيرا خالصا ، ولأن الأشرار يدافعون عن الشر ربما بأقوى مما يدافع الأخيار عن منهجهم فى الحياة .

الطابع الأخلاقى المثالى سائد أيضا فى الرواية الثانية « بعد الغروب » ، ولكن البطل هذه المرة رجل وليس فتاة ، ومن ثم كانت « القوى المعارضة » لطموحه من نوع آخر ، على أننا يمكن أن نجد إشارات جانبية أو روافد للخط الرئيسى تعطى مفاهيم أخلاقية وتثير بعض القلق تجاه معنى الصواب والخطأ ، أو الخطيئة والبراءة ، ففى القصة خبر فى صحيفة عن رجل انتحر

---

(١) تقول أحلام فى تعريف الحب : إنه تفتح النفس للنفس ، ومناجاة القلب للقلب ، وكل شئ فى الوجود يحب شيئا : فالزهر يخالف بين ألوانه ليسقط عليه مختلف النحل ... فهو فى دم الأحياء ، وفى طبع كل موجود . لقيطة : ص٥٧ .

(٢) لقيطة : ٢٠٥ .

بعد أن خسر ثروته ، وقد ضحى بحياته ليتمكن أولاده من الحصول على « التأمين » ، وهو مبلغ يساعدهم على مزاولة الحياة . وبصرف النظر عن « مبدأ » التأمين ، فإن المؤلف يعرض قضيته من خلال محرر الصحيفة ، ويسأل علماء الأخلاق عن تصورهم لفعلة هذا الرجل ، هل هى انتحار ، أو تضحية ، أو استشهاد ؟! كان بطل القصة يقرأ الخبر ويحلق شعره ، وتوافق تساؤله مع انتهاء الحلاق من عمله ، فبادره بقوله : نعيما . وكأنه يعلق على نهاية الرجل المنتحر ، ولكن بطل القصة يتشكك فى هذا الحكم[1] . وفى هذه الرواية تظهر لأول مرة المرأة المنحرفة من خلال صديقه صالح الذى لا يرى ضرورة للزواج ، ويقضى أيامه متنقلا بين بيوت اللهو ، لكنه يقع فى الحب ، حب إحداهن ، وحين يحدث ، فإنه يلتمس مبررا دينيا لتحويل العشيقة إلى زوجة : « خير ما يفعل المرء فى حياته يا أخى أن يمد يده لينقذ نفسا تردت فى مستنقع الخطيئة على الرغم منها . أحببتها وأحبتنى ، ولن أزال فى أثرها عالقا بخطاها ، حتى أعود بها سالكين طريق النور »[2] . لقد حذر عبد العزيز صديقه من « هذا الصنف من النساء » ، ولكنه لم يلتفت إليه ، فحدث ما هو متوقع للقارئ ، ولكن الذى لم يكن متوقعا أن ينقلب « هذا العربيد فجأة ومرة واحدة إلى متصوف زاهد »[3] . ومثل هذه القصة قد تكررت فى مجال الوعظ عند ابن الجوزى

---

(١) بعد الغروب : ص٣٦ — ٣٨ .

(٢) بعد الغروب : ص٥٧ .

(٣) بعد الغروب : ص٢١٢ .

والسراج[١] ، ومن نحا منحاهما فى التأليف عن الحب .

فى « شجرة اللبلاب »حاول أديبنا أن يكتب رواية على أساس سيكولوجى ، فأراد للشاب المهندس أن يفقد أمه فى مرحلة الطفولة ، وأن يتزوج أبوه : الناظر العجوز العصبى المزاج ــ فتاة شابة فقيرة ، التهمت كل عواطفه ، وقد اطلع الطفل من سلوك هذه المرأة على ما يشككه فى وفاء النساء ، ومع أن الحادثة الثانية التى رسخت الإحساس بعمق « الخيانة » عند المرأة كان بطلها رجلا (عم غانم) وإذا كانت الخطيئة الجنسية لا تتم إلا بين رجل وامرأة ، فإن مسوغات اقتناع حسنى بأن المرأة باب الخطيئة تبدو واهية ، كان صديقه راشد أقرب فهما لطبيعة المرأة منه[٢] ، ومع هذا فإن حسنى يعبر عن حالة الانفصام فى الحكم الأخلاق التى يعيشها المجتمع (المسلم) فى عصرنا ، فمع أن الخطيئة لا تتصور إلا من اثنين ، ورغم أن الشرع لم يفرق فى العقوبة أو الحكم الأخلاق حسب الجنس

---

(١) فى كتابيهما : ذم الهوى ، و : مصارع العشاق ، وفى مثل هذه القصص الوعظية قد يحافظون على صورة « خضراء الدمن » ، ولكنها إذ تعذب عاشقها بالهجر فإنه يصل إلى نقاء النفس وخلاص الروح ، وقد يحدث أن تنقلب المرأة الخطالة إلى الصلاح والزهد ، حين تتجه هى إلى واحد من الزهاد ، ولكن الإضافة التى أضافها عبد الحليم عبد الله أن شخصية صالح مغامرة فاسدة أصلا ، لكنها حين عرفت الحب الخالص ، أى التعلق بشخص واحد بصرف النظر عن حقيقة هذا الشخص ، فإنها اكتشفت حقائق إنسانية وربانية لم تكن معروفة من قبل ، وكأن الحب فى ذاته قوة مطهرة مهما كانت شخصية المحبوب .

(٢) يصف راشد المرأة بقوله : « عينة من الجنة فى دنيانا الفانية ، والدليل على أنها من هناك أننا ننسى المتاعب ونحن فى أحضانها ، أمًّا كانت أو حبيبة ، شريفة أو غير شريفة » انظر : شجرة اللبلاب ص : ٩٤ .

(الرجل — المرأة) بل حسب فرص الاستعفاف وبمقدار تضرر أطراف أخرى (بكر — ثيب) فإن هذا المجتمع يفرق فى تصور « حجم » الخطيئة ، كما يفرق فى إصدار الحكم الأخلاقى بين الرجل والمرأة !! لقد كان حسنى مثالا للتناقض ، وقد أراد له المؤلف أن يشفى من « عقدته » بتضحية كبيرة لا يستحقها .

درية (الوشاح الأبيض) هى واسطة العقد فى ثلاث روايات أعطت المرأة الدور الأول فى العمل الفنى ، « لقيطة » أو ليلى كانت ضحية قدر ليس لها يد فى صنعه ، جاءت لتكون أداة اختبار لموقف المجتمع وكشف أحكامه الجاهزة — التى يمكن أن تكون ظالمة — حين لا تستند إلى تأمل الواقع ، أو لنقل — من وجهة إسلامية — حين تلقى الذنب على غير مرتكبه — درية ابنة رجل سكير ، من طبقة صغار الموظفين ، فعاشت عمرها تسخر جمالها وموهبة الصوت الحسن فى اكتساب الجاه المادى والشهرة ، ولكن : إلام انتهت ؟ إن عبد الحليم عبد الله — تجاه المرأة — لا يصبها فى قوالب جاهزة ، بل ينظر إلى كل أنثى كحالة فردية فى كل ما يتعلق بها ، وقد أشار أكثر من مرة إلى الأثر السلبى الذى يتركه خروج المرأة إلى العمل خارج بيتها ، على تربية الأبناء والهناء العائلى والاستقرار الاجتماعى ، بل إنه يرى أن عمل المرأة خارج البيت لا يؤدى إلى الرخاء المادى لأسرتها ، لأن المطالب والمطامح تزيد بنفس النسبة أو أكثر[1] . لكنه يرى أن لبعض

---

(١) انظر مثلا تصويره لحياة أسرة الأستاذ بكير وما يكتنفها من حاجة دائمة للمال رغم مرتب زوجته الذى يزيد عن مرتبه ، والجو الظنين الذى أحاط به الزوجة فى علاقتها برئيسها فى العمل . (سكون العاصفة) وانظر أيضا قصة « حسب الجدول » (أسطورة =

النساء أماكن أخرى غير البيت : « رسالة هذه العانس مديرة الجمعية الخيرية فى خارج البيت فقط » وهذا يعنى أن هناك رسائل لداخل البيت ، ورسائل مقسومة بين الداخل والخارج(١) .

وفى قصة « العازف » وهى من أجمل القصص القصيرة التى كتبها — يجعل الزوجة تخلف زوجها فى طلب الرزق عن طريق عزف الموسيقى فى الشارع ، ويحيطها بجو من الحماية والكبرياء(٢) . أمر لا يخلو من طرافة أن المؤلف احتفظ باسم درية لبطلة قصته الثالثة (البيت الصامت) التى تصدرت فيها المرأة ، ودرية البيت الصامت تختلف كثيرا عن درية الوشاح الأبيض ، فهى ابنة رجل يعرف الله ، وقد عرفه الله(٣) . وليست المشكلة المعلنة تحت الضوء فى القصة هى المشكلة الحقيقية ، لقد تعرضت درية ، وهى بين الطفولة والصبا ، لحادث اعتداء من عامل فى مبنى تحت الإنشاء ، وخشيت أن تصارح أهلها ، وكانت المأساة ليلة زفافها ، حيث رفض الزوج تطليقها . إن درية قد واجهت مصيرا قاسيا ، ولكن التشريح الحقيقى فى الرواية لم يكن لنفسية الأنثى ، بل لنفسية الرجل الذى يفاخرها

= من كتاب الحب) وفيها نجد الزوجين وقد رتبا كافة أمور حياتهما ، وتنال الزوجة فرصة ذهبية للسفر فى بعثة للحصول على الدكتوراه ، ويوافق الزوج أمام إلحاحها ، وتترك أطفالها فى رعاية المربية ، وما تكاد الزوجة تسافر حتى يحضر أخو المربية لتعود معه إلى القرية كى تتزوج ! هكذا يسقط فى يد الزوج ، وتبلغ السخرية مداها حين نعرف أن موضوع الدكتوراه التى ستحصل الأم على درجتها فى « التربية وعلم النفس » .

(١) سكون العاصفة ص : ٣٤٠ .

(٢) قصة « العازف » ضمن مجموعة : أسطورة من كتاب الحب ص٣٠ وما بعدها .

(٣) البيت الصامت : ص٤٧ .

بقوله : « انظرى كم نحن محظوظون نحن الرجال . نقترف الآثام ونظل عذارى[١] . ويمكن الربط بين هذا المفهوم للعذرية وموقف حسنى من خطيئة الرجل وخطيئة المرأة (شجرة اللبلاب) لقد رفض سلامة تطليق درية . ولكنه فى مقابل الستر عليها قرر الاستمتاع بها دون إنجاب !! فدفع بها نحو انحراف لم يخطر لها ببال حين أحبته ، وحين صارحته بحادث طفولتها منتظرة أن يقدر صدقها : « وسيطر عليها الميل إلى الخطأ المخبوء، ميل من لم تنصره الفضائل[٢] . و « إنها تحسّ بنوع من اختيار الذنب »[٣] . هكذا ولدت الخطيئة حين تعسر الغفران وكما يقول مختار بحق : « ما بالنا نجعل التكفير عن الزلات عملا يجب أن يستغرق أعمار التائبين ؟ ألسنا بهذا ندعو المخطئين إلى اليأس ؟ فإن الذى يقدم على التكفير سيفضل التمادى فى الخطيئة يوم يعلم أنه سيحيا مكفرا ما عاش »[٤] .

---

(١) البيت الصامت : ص٦٨ . (٢) البيت الصامت : ص١٨١ .

(٣) البيت الصامت : ص٢٠٤ .

(٤) شمس الخريف : ص٢٤٢ — وفى هذه الرواية زلت الزوجة لما تشعر به من فراغ ولانشغال زوجها عنها ، وعقب ذلك تنبهت لسقطتها فرفضت معاشرة زوجها وأصرت على الطلاق ، وعاشت وحيدة ، وحين صارحت (مختار) بذلك فإنه تردد فى الاقتران بها ، غير أنه تزوجها ، وعرف فى رعايتها معنى الوفاء والإيثار . وهو عكس المصير الذى انتهت إليه درية (البيت الصامت) وهذا يعنى أن المرأة ليست العنصر الحاسم فى صناعة الخطيئة ، والأمر يتوقف على الزوج ، ونظرة المجتمع إلى المرأة ، ثم نظرته إلى المطلقة بصفة خاصة ، ويتأكد هذا المعنى فى (سكون العاصفة) فقد كان ضمير الأستاذ عزت هو الضمانة الأساسية لعدم التورط ، وكذلك الأمر فى (الجنة العذراء) فعلى الرغم من أن « بهية » كانت تشك فى أن ابن ضرتها وراء تدبير تسور الشاب لبيتها تمهيدا لاتهامها =

وتفتح (السيدة ف) — شمس الخريف — صفحة أخرى فى تصور الكاتب للبناء الأخلاقى للمرأة ، لقد رأى كثيرا أن المرأة صدى لموقف الرجل أولا ، والمجتمع ثانيا ، ولكنه — مع هذا — صور نماذج من النساء قادرات على حماية أنفسهن حتى مع تألب الظروف الصعبة . لقد زلت (السيدة ف) مع جارها ، ولكنها أبت العودة إلى زوجها منذ تلك اللحظة ، مع ثرائه وميله إلى التسامح ونكوص الذى أغواها ، لقد فرقت بإصرار بين الزلة والخطيئة . وفى قصة « طريق شجر الكافور »[1] يحاول سائق الشاحنة أن يرهب الراكبة الريفية التى ألجأتها الظروف أن تركب معه منفردة ، ولكنها تحاول — من ثم — إرهابه حتى تصل شاطئ الأمان . وفى رواية « من أجل ولدى » نجد شخصية من أهم الشخصيات النسائية عند عبد الحليم عبد الله : الست جليلة ، وهى امرأة مرابية ، بين الشباب والكهولة ، فيها بقية من جمال ، ولها طفلان ، وتسكن بيتا نائيا فى منطقة

= بالزنا وحرمانها من الميراث ، فإنها أوشكت حين أحست بالشاب ، أن تسايره — ولو للحظة — تجنبا لإعلان الفضيحة ، لكنها فضلت أن تصرخ ، وبخاصة حين سمعت الطرق على الباب . وانظر أيضا قصة « بقية الليل » من مجموعة (النافذة الغربية) وفيها تنقطع السبل بشاب فى حلوان ، لا يملك أجر العودة إلى مسكنه بالقاهرة ، تراه فتاة من فتيات الليل فتحسبه صيدا ، فيرحب بالذهاب معها إلى بيتها حيث لا يجد مأوى والبرد شديد ، وهناك يتحول إلى روح خالص ، ويخاطب الفتاة ، فنلاحظ استجابتها لكلماته : « إننى أحترمك قبل كل شىء ، وأعلم أنك لم تستعرضى المهن أو تختارى هذا ، ولكن يدا أقوى منك هى التى رمت بك » فرأيت قناع الشهوة المصنوع يسقط عن وجهها مرة واحدة ، وظهرت من ورائه المرأة المسكينة المحطمة المظلومة ، فرأيت دموعا فى عينيها تحت شعاع مصباحها المخنوق » .

(١) من مجموعة : الدموع الخرساء ص١٩٤ .

حديثة . لم يقدم الكاتب شخصية المرأة المرابية النمطية ، القبيحة شكلا وخلقا ، مصاصة الدماء المستغلة ، إن هذه الإيحاءات البشعة هى التى ترتسم فى خيالنا حين نعرف الصفة (مرابية) ولكنها حين نقتحم عالمها الداخلى لا نجدها كذلك ، بل نكتشف أنها ضحية الجمال ، والوالد المعدم ، والزوج القادر ، وغياب الرعاية الاجتماعية لمن لم تجد راعيا ، وهى تقبل علاقة محرمة بفؤاد حين تطمئن إليه ، ولكن الكاتب لا يحرمها الاستعداد للتوبة ، والقدرة على مواجهة النفس وتنقية الضمير . فى لحظة تشعر أنها أكبر سنا من صديقها ، وأن هذه العلاقة محرمة ، وغير قابلة للاستمرار تحت شكل الزواج ، وأنها غارقة فى الخطايا . وهنا تصارحه بعد مراحل من التمهيد : « لقد عزمت على أن أحج » ، وتتحول من عشيقة إلى أم : « فكر فى نفسك أنت ، واعلم أننى لن أنساك ، لكن : هل سيقبل الله حجتى ، سأتوسل إليه هناك ، من يدرى . أليس من الجائز أن أدفن فى المدينة ؟ » ، ويحدثها عن مغفرة الله الواسعة ، « فقالت فى فرح : إذا مت فاسأل عن أبنائى ، إنهم يحبونك »[1] . إن شخصية الست جليلة متعددة الدلالات ، يكفى أنه لم يجردها من إرادة الخير ، ومن إمكان التخلص من خطايا الماضى ، وهى مثل زبد البحر ، وجعل حلمها العودة إلى الوطن الروحى لجميع المسلمين : الحج ، والانتظار فى المدينة ، وكأنها تلقى عن كاهلها الماضى الملوث ، وتولد من جديد . إنها النموذج الأمثل لحلم الولادة الجديدة التى حاولتها شخصيات أخرى عند هذا الكاتب ، واستطاعت النساء أن تحققها فى حين عجز كثير من الرجال .

---

(١) من أجل ولدى : ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .

إن الخطايا وخيمة العواقب لدى هذا الكاتب ، وإن كان يتجنب المظهر الوعظى المباشر ، وهذا يستمد من تأمل المصائر التى واجهتها الشخصيات المنحرفة ، بصرف النظر عن أن تكون دوافع الانحراف اجتماعية أو أسرية أو ذاتية . لقد كان المقياس الذى لا يخطئ هو « الإرادة » أو الرضا الداخلى ، والإرادة هى مناط التكليف ، والعقوبة . ومن هنا اختلف مصير الست جليلة — المشار إليها آنفا — عن مصير عطيات (غصن الزيتون) التى قتلت بإثمها ، رغم أن الكاتب — من الناحية الفنية البحتة — لم يرد أن يصورها كخاطئة ، وإن أحاطها بالاحتمالات — أو لنقل : الشبهات — فتحطمت حياتها الزوجية ، ثم حياتها كاملة ، لهذا السبب . ومع ذلك فإن الزوج — المدرس عبده — لا ينجو من مسئولية انحراف الزوجة ، فقد كان يعرف ماضيها — وفيه هذا الاحتمال — ولم يكن من قوة الشخصية بحيث يزاول حياة محددة الملامح والأبعاد ، تلزم الزوجة بالانضباط ، وقديما عرفت الشريفة بأنها التى إذا ضبطت انضبطت[١] .

فى مرحلة متأخرة حاول عبد الحليم عبد الله أن يصور المرأة التى جرى الذوق الاجتماعى على وصفها بالمتحررة ، وأول امرأة من هذا النوع هى السيدة « أسرار » (للزمن بقية ، التى يسألها البدوى وصلاح عن رجل رأياه معها فى الطريق :

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب : الحب فى التراث العربى ، لصاحب هذه الدراسة (الكتاب رقم ٣٦ — سلسلة عالم المعرفة . منشورات : المجلس الوطنى للثقافة . الكويت) .

— أحد الموظفين فى الشركة . رجل كثير الهموم . خيم الحزن على قلبه لأن زوجته خائنة ، فرأيت من الإنسانية أن استجيب لدعوته للمسرح . ربما .. عاد سعيدا .

كانت تتكلم بطريقة طيبة تدرس أدق ما فى الإنسان ، رجل أو امرأة على حد سواء ، وتقول بلهجة فخور « عاد سعيدا » ، وهدوؤها مثير .

ونفخ البدوى من أنفه . وزمجر صلاح وهو يعاود السؤال :

— كيف جعلته يعود سعيدا ؟!

ردت ببساطة :

— رأى المسرحية معى .

سأل صلاح بخبث :

— وعندما أغمى على البطل ورقصت البطلة حوله ، فى دائرة سحرية فأفاق ، كتعبير عن العبث . ثم قبلها . فماذا فعلتما ؟!

— أنت خبيث يا صلاح . لو كنت جوارى ماذا كنت تفعل ؟! أخذ كفى من حجرى وأمسكها .. لم يفعل غير هذا (وضحكت مثل مخمورة) نوع من التكفير عن سيئات الماضى يا ابنى العزيز .

قال البدوى :

— ومن أى نوع يكون هذا التكفير ؟

قالت وكأنها تعد حروف كلماتها :

— من نوع .. تكفير .. قاطع .. الطريق .. حين ينضم لقوات الأمن ليلة واحدة .. تصدق بالحرام لوجه الله[1] .

---

(١) للزمن بقية : ص١٣٠ — ١٣١ .

هذه الشخصية ببنائها الفكرى ومنهجها السلوكى غريبة على أسلوب أديبنا ، وأغلب الظن أنه دخل فى دائرة تقليد بعض شخصيات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس (اقرأ مثلا : ثرثرة على النيل — أنا حرة) ولعله أدرك أن هذه الشخصية دخيلة على فنه ، فلم يكررها ، وإن اقترب من ملامحها العامة فى شخصية « منى المنشاوى » (قصة لم تتم) مع اختلاف أساسى فى مساحة المسموح فى التعامل مع الرجال ، والبعد عن أجواء الغواية[١] .

وبشكل عام فإن غالبية النماذج النسائية فى قصص عبد الحليم عبد الله رفضت تزييف المشاعر ، واعتبرت الغش العاطفى هو الخطيئة التى تفرخ الكثير من الخطايا ، ولهذا تمسكت بعلانية السلوك وتوحد الشعور ، انطلاقا من شعار : « إن الشرف الحقيقى هو أن نحافظ على الشىء ونحن قادرون على تبديده تمام القدرة دون أن يرانا أحد »[٢] .

---

(١) يصف الكاتب شخصية أسرار — بأنها : « شخصية المجرية والمجنونة والمستهترة وأطيب النساء . كل هذا فى جلدها ، ليرحمها الله . لا تظن أنها ماتت ، ليرحمها الله ففى بعض الليالى تبتهل وتصلى ، وفى بعضها تشرب ، وأحيانا تؤكد أن قلبها لم يعرف الحب وأنها لا تزال عذراء لأن العبرة بعذرة الروح » الرواية ص : ١٣٦ — ويرتبط المؤلف بمقولاته الأساسية فى النظام الأخلاقى ومسئولية الرجل عنه ، وهذا الكشف يأتى على لسان أسرار نفسها ، حيث تقول لصلاح : « مجتمعكم الوغد خلط الحرام بالحلال لأنه يبحث عن الفايظ ، أنتم تستعملونها فى الريف بمعنى الربا ... ليس الربا فى المال وحده ، ولكنه فى العلاقات ، حتى بين الرجال والرجال . منافع . فتحتم لنا باب الجرأة والإهانة ، كل رجل منكم فى خياله امرأة غير التى يعاللها » الرواية ص : ١٣٣ .

(٢) مجموعة : خيوط النور : ص٢١٢ .

أما الرجال فى قصص عبد الحليم عبد الله فسنلاحظ أنهم فى تجاربه الأولى من الشباب ، ولديهم إحساس حاد بفظاعة الخطيئة الجنسية وحرص على العفة . حتى « الوشاح الأبيض » التى اقتربت من أجواء العاملات فى الحقل « الفنى » لم يفترق فيها الحب عن رموزه العذرية والعفيفة إلى حد كبير ، ثم ظهر منحنى آخر بدءا من « غصن الزيتون » التى جاءت فيها الخطيئة ذات طابع تخفيفى ، إذ وضعها المؤلف تحت شعار : « حين ترتمى المرأة باسم الزواج فى أحضان رجل كان لها به علاقة قبل الزواج ، تصبح « مشروعية » الحوادث بينهما ذات « أثر رجعى » ، بمعنى أن أخطاءهما الماضية تخف فى ميزان « الحكم » ما داما قد تزوجا ، ولكن ينبغى تأمل الفرق بين الشعار المعلن والمآل الذى انتهت إليه شخصيات القصة ، فهذا الزواج لم يسحب مشروعيته بأثر رجعى على ما تم قبله بين عطيات وعبده ، بل ظلا فى حالة من الشك المقيم ، حتى تحطمت حياتهما المشتركة . فى « من أجل ولدى » حدث « توسع » فى كل الاتجاهات الأخلاقية المميزة ، فقد عانى « فؤاد » الحرمان طويلا ، ولزم « العفة » من موقف العجز عن المغامرة انسياقا مع تربية أمه المسيطرة ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يعشق حين أحسّ أن أيام شبابه تمضى وليس ثمة فرصة للزواج ، غير أنه أنهى هذه العلاقة وعاد إلى سالف عهده ، ولعل موت الأم وعرض المنزل القديم للبيع يعنى الرغبة فى طىّ صفحة الماضى المتعثر .

سيظهر الفتى الملحد لمرة واحدة فى « سكون العاصفة » ، شكرى يقدم حجته « التاريخية » فى إنكار خلود الروح ، فالحواس طريق المعرفة ،

والروح انبعاث تلقائى للحواس ، والعين الفاقدة الإبصار تعجز عن التراسل وتتوقف عن التوصيل ، ومن ثم يكون جزء من الروح قد انتهى .

لقد ربط الكاتب بين هذا « الإيمان » والاندحار فى طريق اللذة ، يأسا من فكرة « الجزاء » ، وعجزا عن تصور « حياة أخرى » . إن هذه الرواية الفريدة فى منحاها تعانى خللا فنيا ، فقد أنجب الأستاذ عزت ولدا (شكرى) وبنتا (سوسن) ورغم أنهما غصنان من شجرة واحدة فقد اختلفت وجهتاهما ، ولكن سوسن كانت أعجز من أن تمثل حجة الإيمان فى مقابل الإلحاد ، وبذلك بقى الأب وحده يجادل ولده بالحسنى ، ويمكن أن نلاحظ فجوة من عدم التوافق بين الأب والابن ، ولهذا يمكن أن نحمل الأب « المؤمن جدا » قدرا من مسئولية الانحراف لدى ابنه . حين يكون الإلحاد قوى الحجة فى عمل فنى ، مسلحا بالمنطق والمعمل والجيولوجيا ، فان انتداب فتاة مراهقة عاطفية لا تكف عن البكاء ، أو والد مشغول بفتاته وقد صار لها أبا وأما بعد وفاة أمها ، مثل هذه الفتاة تؤدى إلى خسارة قضية الإيمان ، ولم يجد الكاتب مفرا من « دحر » ملحده إلى الملذات ثم المرض الصدرى ثم الموت وحيدا والتلازم هنا غير عضوى[1] ، كما أن الأب

---

(١) قارن هذا التوازى المختل بين شكرى وسوسن ، بالتوازن المتناسق المتكافىء بين عبد المنعم وأحمد شوكت فى (السكرية) ، لقد كان عبد المنعم عضوا صريحا فى جماعة الإخوان المسلمين ، كما كان أخوه أحمد اشتراكيا يساريا متمردا على وضعه الطبقى . لقد انتهى الاثنان إلى السجن فى آخر الرواية ، لأن وزارة الداخلية لا تفرق بين من يعبد الله ومن ينكره ما دام عضوا فى تنظيم ... هذه النهاية لم تؤثر على الدلالات العظيمة لحركة الصحوة الإسلامية فى مصر ، وحجة الداعية فى مواجهة دعوات عصر المادية والإيمان بالعلم .

سيعبّر عن رؤية « جيل مختلف » ، أو ما يمكن أن يبدو للقارئ على أنه كذلك . فى هذه الرواية ذاتها حادثة جانبية على قدر من الأهمية من حيث تضفى على الرؤية الشاملة للرواية . لقد تعرف شكرى على امرأة ثرية ، يسافر زوجها كثيرا ، وقد جرى بينهما هذا الحوار :

— أنت تدرس الفلسفة أيها الشاب ؟

— نعم .

فسألته آملة أن يكون الجواب نعم أيضا :

— إذن فأنت تملك إيمانا جديدا غير الإيمان الذى يملكه العوام ؟

— نعم أيضا .

ولأنها تملك إيمانا لا يملكه « العوام » فإنها أقامت مع شبيهها علاقة محرمة ، ثم ما لبثت أن شرحت كيف انتهت إلى « إيمانها الفلسفى » :

« أنا بنت لأبوين شديدى التدين ، وتعلمت فى إحدى المدارس الأجنبية ، فكنت ألبس وأخلع كل يوم خصالا على درجة من التناقض ، تعادل ما يقع بين بيئة المدرسة وبيئة البيت »[1] .

أغلب الظن أن عبد الحليم عبد الله لم يستطع أن يدين الإلحاد ، فليس الموت بمرض صدرى ثمرة تلقائية له ، لنقل إنه لم « يدرس » بالقدر الكافى قلق الجيل الجديد ، ودوافع هذا القلق على المستويات المختلفة : الفردية والأسرية والاجتماعية والعالمية . ثم جاء تركيب الرواية فأدى إلى ضعف آخر ، لأن أديبنا يكتب قصص أشخاص وليس قصص قطاعات أو طبقات

---

(١) سكون العاصفة : ص٣٤٥ ، ٣٦٢ .

أو مجتمعات . لقد استطاع عبد الحليم عبد الله أن يصور « الإيمان » فى صورة مشرقة ، ولا نعنى بالإشراق هنا العبارات الجميلة أو اللغة الوعظية ، أو حتى الحجج المقنعة .. أبدا ، وإنما نعنى أنه استطاع أن يكشف عن عمق الإحساس الإنسانى بالإيمان وكونه فطرة لا تحتاج إلى أكثر من لفتة بسيطة أو حادثة عابرة لكى يأخذ موقعه الحقيقى فى نفس الجاحد أو القلق .

فى قصة « الشفيع »[١] نجد المحامى الشاب يقسو فى معاملة زوج أبيه ــ بعد وفاة الأب ، فهذه الزوجة استأثرت بمحبة الأب ويحلى الأم وصار الخير كله ملكا لها ، ولكن المحامى الشاب فى طريق سفره الليلى يقع بسيارته فى قبضة عصابة تقطع الطريق . لقد رأى الموت ، لكن زعيم المجموعة نظر فى وجهه وتركه يعبر دون إيذاء ، وقال له كلمة واحدة : « توكل على الله . أصلك ابن حلال » ! ويحاول بعد هذيان الحمى أن يسترجع المشهد ، فيعرف أن هذا الرجل كان محبوسا على ذمة قضية ، وانتدبته المحكمة ليدافع عنه ، فأحسن الدفاع . لم يرد الكاتب أن يجعلها قصة بوليسية ، أو قصة حادثة بالوقوف عند هذا الحد ، لقد أرادها نفسية إيمانية . لقد أيقن أن الجزاء لا يضيع ، حتى عند المجرم الخارج على قوانين الأرض والسماء ، وبذلك مال إلى التعاطف مع أرملة أبيه : « لا تخافى ، فقد كنت يوما من الأيام عزيزة عند أبى العزيز » .

---

(١) مجموعة : الماضى لا يعود : ص٤٤ .

وفى قصة « شريط النور »[١] نجد البواب وزوجته يتحدثان بحرية عن نجل صاحب الفيلا التى يقومان بالخدمة فيها وحراستها ، وقد سافر إلى المصيف . كانت غرفتهما قرب باب الحديقة ، والليل ساكن ، والمرأة على وشك الوضع ، ويفكران فى مواجهة متطلبات الولادة ، وضرورة أن يقترضا من رجل كريم يملك الفيلا المجاورة لأن سيدهما لا أمل فى عطفه أو دفعه مقدما . كان السيد البخيل المقصود قد عاد خلسة فى الليل ، ويقف فى الشرفة يسمع حوار الزوجين وتعليقهما على ..أخلاقه وسلوكه . وفى الصباح أعلن عن وجوده ، وعرض عليهما المساعدة ، فثار الشك عند البواب وزوجته . قالت الزوجة : أما أنا فقد قلت كل خير ، لماذا لا نفرض حين نتكلم عن الناس فى غيابهم أنهم يسمعون ما نقوله عنهم ؟ فأكمل زوجها فى فلسفة : ولماذا تفرضين فرضا سيئا ؟ ربما لو كان سمعنى لعرف عيوبه وعدلها ، ليس من الضرورى أن يظل الردىء رديئا فشريط النور هنا ممتد فى داخل النفس الإنسانية ، قابل للانتشار والاستمرار ، وهذه رؤية متفائلة للإنسان أصلا . هكذا نجد ممرضة تسرق أدوية المرضى وطعامهم ، ثم تسقط مريضة بالحمى فتهذى متخيلة أن الناس جميعا تحولوا إلى لصوص يغشونها فى كل ما تحتاج إليه ... فلا تفيق إلا على التوبة[٢] . وفى قصة « يوم الحصاد » إفادة فنية جيدة من قصة أصحاب الجنة ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ فقد قرر الفلاح أن يقتطف ثمار نخيله قبل نضجها ليمنع أطفال القرية من التعدى عليها . صعد إلى إحدى النخلات ، وإبان

---

(١) مجموعة : ألوان من السعادة ص٧٨ .

(٢) قصة : وجها لوجه ، من مجموعة : حافة الجريمة ص٤٠ .

انهماكه فى قطع الثمار اكتشف أن حية رهيبة تلتف حول جذع النخلة . فقد قدرته على طلب النجدة ، وأوشك أن يسقط ، لكنه حين صرخ لم ينقذه إلا الأطفال الذين كانوا مختبئين خوفا منه ، فقد ذهبوا وطلبوا إنجاده من أهلهم[١]. وفى قصة « عودة النور » طبيب باطنى شاب ، يعاوده مرض عينه التى أصيبت وهو صغير ، كان يقاوم المرض بيقين أمه حين كان صغيرا ، لكنه بعد أن صار طبيبا آثر أن يعتنق القوانين العلمية وحدها ، حتى سخر من المرضى الذين يحاولون مقاومة المرض باليقين ، بعد أن قال العلم كلمته فى مرضهم . ثم يتعرض هو نفسه لمحنة فقد البصر ، وتربط عيناه فيعطى فرصة للتأمل ، ويقول العلم كلمته المؤنسة ولكنه يتعلق بالأمل ويقاوم ، ويعرف « أن هناك قوة عليا تعطى كل القوى ، وهى التى منحت طمأنينة القلب ونور العين »[٢] .

هذا سيل لا ينقطع فى كتابات عبد الحليم عبد الله ، وهو إذ يصدّر روايته عن الصحابى سلمان الفارسى رضى الله عنه بعبارة ضارعة تقول : « إن لم تكن إحدى حسناتى فاغفر بها إحدى سيئاتى يا ربى » فإنه — شأن الكاتب المؤمن ، بل شأن المؤمن عامة ، يستصغر جهده ، ويظل على حذر من أفعاله ، لقد صور أشواق هذا الصحابى للإسلام ، ولشخصية محمد عليه الصلاة والسلام تصويرا صوفيا عميقا ، لم يحرص فيه على تسجيل طبيعة عصر الجاهلية قدر حرصه على تصوير أشواق النفس حين تتملكها

---

(١) القصة القرآنية فى سورة القلم ، وقصة يوم الحصاد ضمن مجموعة : حافة الجريمة ص٤٢ .

(٢) مجموعة : الضفيرة السوداء ص١١٦ .

نزعات التسامى واستشراف الآفاق الرفيعة والتسمع لنداء السماء . ولكن هذه الرواية ليست — من الوجهة الفنية ، ولا بالمقياس الإسلامى وحده فى قراءة الأدب ، خير أعماله الأدبية ، فهناك مما ينافسها ، بل ما يتفوق عليها فى تحريك نفس الإيمان نحو الخير ، ونصرة كل ما هو فاضل فى طباعه وأخلاقه ، وما يزكى اتصال المخلوق بخالقه ، والإيمان بأنه موجود فى كل شيء ، فى كل وقت ، فى كل عمل ، ومن ثم ينبغى أن تصدر أفعال الإنسان عنه ، وإليه .

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الأستاذ : محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة (ليلة غرام)
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) الماضى لا يعود
(٧) من أجل ولدى
(٨) ألوان من السعادة
(٩) الوشاح الأبيض
(١٠) سكون العاصفة
(١١) الضفيرة السوداء
(١٢) الجنة العذراء
(١٣) أشياء للذكرى
(١٤) خيوط النور
(١٥) حافة الجريمة
(١٦) الباحث عن الحقيقة
(١٧) البيت الصامت
(١٨) أسطورة من كتاب الحب
(١٩) للزمن بقية
(٢٠) النافذة الغربية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء
(٢٤) لقاء بين جيلين
(٢٥) الوجه الآخر
(٢٦) غرام حائر
(٢٧) حلم آخر الليل
(٢٨) عودة الغريب

رقم الإيداع ٧٤٣١ / ١٩٩٥
الترقيم الدولى 9 - 0949 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه